حائز على جائزة دمشق للفكر والإبداع 2013

جان دوست

نواقيس روما



رواية

دار الساقي

جان دوست

نواقيس روما



نواقيس روما

الطبعة الأولى 2016

ISBN 978-6-14425-911-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi

دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى الفتى يونس؛
مدوِّن هذه الحكايات.


Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

الفتى الغريب

غطى الثلج طرقات المدينة والجبال المجاورة حتى خفيت المعالم وصارت الطيور الجائعة تغوص حذرةً في البياض الهشّ بحثاً عن طعامها في يوم الجمعة ذاك من شهر كانون الثاني.

كانت قد مضت حوالي ثلاثة أشهر على عودة المترجم العجوز عشيق بن رشدي أفندي الشركسي الأنطاكي من إيطاليا حين ذهب إلى أنطاكية يزور قبر والديه هناك. وقد استغلها فرصةً ليبحث عن خطاط ينسخ له سيرة حياته التي عجز عن تدوينها بسبب آلام أصابعه. كاد الثلج البهيج يغطّي الشواهد الأربع لقبري والديه المتلاصقين في مقبرة المدينة حيث ذرف ما تيسّر له من دمع عصيّ. عاد عشيق من المقبرة صامتاً واتجه إلى المسجد الكبير ليؤدّي صلاة العصر بعد أن وعده خادم المسجد بجلب مجموعة من أمهر الفتيان الخطاطين في المدينة ليختار واحداً منهم.

لم يتجاوز عدد المصلين، ونصفهم أو أقل من الفتيان، الصفين

بعكس ما كان عليه الأمر في صلاة الجمعة ظهراً حين غصّ المسجد بهم. وحين انتهت الصلاة وسلّم المترجم التسليمة الثانية لمح على شماله فتىً لطيفَ المُحيّا يسلّم تسليمته الأولى مُسبلاً عينيه بخشوعٍ جمٍّ ثم رآه يتراجع إلى الخلف لينتبذ من الباقين ساريةً وسط المسجدَ استند إليها غارقاً في الصمت.

خرج بقية المصلين سراعاً ولم يبقَ إلا خادم المسجد والفتيان الذين أتى بهم ليعرضهم على المترجم الشيخ محمد عشيق الأنطاكي. عرض أولئك الفتيان الخجولون مهاراتهم واحداً تلو الآخر، فراقب الشيخ حركاتهم الطريفة وهم يخطّون على القراطيس آياتٍ أو أبيات شعرٍ أو جملاً قصيرة. كان أحدهم يكِزُّ على أسنانه وهو يدير القلم ليرسم الواو في جملة "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم"، بينما صار آخر يُخرج لسانَه من طرف فمه وهو يضع نقاط الحروف المعجمة في آية "مثل نوره كمشكاة فيها مصباحٌ"، بينما كاد أحدهم يدمي شفته العليا حين عضَّها وهو يدوّن جملة "قل كلٌّ يعمل على شاكلته".

استمر الخطاطون الصغار يعرضون كفاءاتهم فيستنطقون بياضَ الطروس ويسكبون الحروف عليها، واستمر المترجم يعاين تلك الطروس التي صارت تنطق بخطوطهم التي أجهدوا أنفسهم ليكتبوها بإتقان مبالغ فيه حتى يظفروا بعمل الناسخ لديه. لم يعجبه أحدٌ منهم فانصرفوا جميعاً وبقي الخادم يصلح حال البسط التي حرفتها أقدام المصلين ويعاين الموقد الكبير قرب المحراب ثم يحكم إغلاق النوافذ. بقي المترجم الشيخ في مكانه يراقب الفتى الذي انزوى بعد أداء صلاته واستند إلى سارية هناك فرأى على ملامحه آثارَ حزنٍ

فضحته العينان المحدقتان في نقوش البسط الفاخرة أمامه ثم في الآيات القرآنية المكتوبة بخطٍ نافرٍ جميل فوق المحراب وعلى الجدران. نهض المترجم عشيقٌ من مكانه وسار حتى وقف بحذاء الفتى وخاطبه برفق قائلاً:

- أتسمح لي أن أجالسك قليلاً يا فتى؟

باغت السؤالُ الفتى الغارقَ في صمته فنهض احتراماً، لكن الشيخ ربت على كتفه وطلب منه الجلوس فجلس وجلس معه. افترش الاثنان أرض المسجد وعاد الفتى الغريب إلى التحديق في آيةٍ مكتوبةٍ فوق المحراب متأملاً حروفها النافرة الجميلة.

مضت لحظات غير قليلة ران فيها صمتٌ ثقيل. كان المسجد قد فرغ من المصلين وأراد عشيقٌ المترجم أن يمحوَ سطورَ الصمت التي دبجها قلم الرهبة ذاك العصر البارد فقال مبتسماً بحنان:

- أراك أيها الفتى تحدق في آية المحراب، أأعجبك الخط؟

- نعم أعجبني يا سيدي. الخط الديواني جميل.

ردّ الفتى دون أن يزوغ بصرُه عن الآية المكتوبة بإتقان، فأردف الترجمان مستفسراً:

- أتعرف ما الرزق الذي كان يجده زكريا عند سيدتنا مريم كلما دخل عليها المحراب؟

- العنب في غير أوانه.

ردَّ الفتى الغريب وهو يلتفت إلى المترجم الشيخ لأول مرة ويحدق في عينيه الطافحتين بالأُنس.

دهش عشيق لنباهة الفتى وسُرَّ للجواب السريع فسأله:

- ما اسمك ومن أين أنت؟

- أنا يونس بن إيبش وقد قدمت منذ يومين من بغداد. سأرحل بعد غد إلى بلادي.

- بلادك؟

- نعم أيها الشيخ. أنا أرناؤوطي من البوشناق من إقليم السنجق. أقصد أن أبي من هناك.

- وما هي صنعتك أيها النبيه؟

- أنا خطّاط. أجيد الخط بأنواعه وقد تعلمته في بغداد.

حينما قال يونس إنه خطاط لمعت عينا الشيخ بِشراً فقال له:

- يا ابن أخي يا يونس، أنا أحتاج إليك.

- تفضل يا شيخ. أنا طوع أمرك.

- هل تستطيع نسخ الكتب أيضاً؟

- أنا أجيد الخط بأنواعه كما قلت، وقد مهرت في نوعين منه، النسخ والثلث، ونسخت أكثر من عشرين كتاباً حين كنت في بغداد.

كان المترجم الشيخ عشيق، العائد من روما، يعاني آلاماً في أصابع يديه بعد خمس سنوات قضاها يترجم الكتب من اللاتينية والإيطالية إلى العربية قبل أن يغادر روما. وحين عزم على تدوين سيرة حياته التي أمضاها في بلاد الطليان لم يستطع فاضطر إلى البحث عمّن يقوم بتدوين ما يمليه من سيرته الطويلة تلك. ولقد كاد يغلبه اليأس لمّا انصرف الفتيان الخطاطون الصغار دون أن يعجبه أي منهم. وكان قبل ذلك قد أعياه البحث في تلك الأنحاء عن كاتبٍ حسن الخطّ يدوّن له، مقابلَ أجرٍ معلوم، ما لقيه وعاشه في تلك البلاد،

إلا أنه لم يعثر على بغيته. وحين سمع عصر تلك الجمعة من ذلك الفتى الغريب الحزين أنه خطاط وأنه يجيد نسخ الكتب، ورأى بعض خطوطه البديعة في كناشة كانت معه، فرح كثيراً وعرض عليه أن يعود معه إلى قريته "ميدانَ" ليخدمه ويساعده في تدوين ما يريد مقابل أجرٍ مجزٍ لم يستطع الفتى مقاومة إغرائه.

***

بدا الطريق من أنطاكية إلى قرية ميدانَ على ساحل البحر الأبيض المتوسط، صباح اليوم التالي، محفوفاً بالسكون وأسراب زرازيرٍ كأنها سطورٌ سوداء يرسمها خطّاطٌ عجول على العراء الثلجي الكبير. بدا الفتى يونس مذهولاً وهو يحدق في السماء إذ تخطّ بحبرها الأبيض فصولاً من سيرتها على تلك التلال والهضاب وعلى الغابات المتناثرة هنا وهناك. هطل الثلج كحكاية لطيفة فبهرت عيني الفتى القادم من بغداد وخلبت لبَّه، فيما كان الشيخ متدثراً بعباءة الفرو يصغي للذكريات وهي تقرع أجراسها في خياله الواهن.

سارت العربة في الطريق نفسه الذي سلكته ذات صيف عربةُ الحوذي الكردي بوزان منذ ما يقرب من أربعة وخمسين عاماً حين سافر عشيق المترجم إلى روما. تذكّر الشيخ، وهو يعود إلى قريته، وجهَ أمه الحزين وتجهّمَ أبيه وصمتَه وثرثرة الحوذي الكردي بوزان في ذلك الصباح الصيفي المنعش، فعَرَتْهُ رعشةٌ خفيفة ظنَّها يونس من أثر البرد فقال باستحياء:

- هذه البلاد باردة.

- أجل يا يونس إنها باردة.

عقّب الشيخ وهو يهزّ رأسه موافقاً ثم قال:

- أليست بغداد باردة أيضاً؟

- كلا يا مولاي. لم أرَ الثلج في حياتي، سمعت به في الشعر.

- الطريق إلى ميدان قد يطول ثلاث ساعات يا يونس. هل لك أن تُقصّره؟

- كيف يا سيدي؟

- تحكي لي قصتك. ما الذي أخذ بكم إلى بغداد، وكيف غادرتها، ولماذا عزمت على العودة إلى بلادك؟

زفر يونس زفرةً طويلة ثم طفق يسرد قصة حياته ساهياً عن الطريق واهتزاز العربة وصدى السياط على كِفلي الحصان:

- ولدت في بغداد قبل سبعة عشر عاماً في عهد واليها حاجي أحمد باشا. وقد سمعت أبي إيبش بن يونس البوشناقي، رحمه الله، يقول لي ذات مرة ضاحكاً: "ولدتَ يا بني في زمن اضطراب الدنيا واختلال الملك في العالم، فلم تمض شهور قليلة على ولادتك حتى ظهرت فتنة أميرٍ كردي اسمه سليم بيك البابانى دفعه العجم لمهاجمة العراق إلا أن جيش السلطان غلبه". ثم تناقلت الركبان خبر مقتل نادرشاه الأفشاري شاه العجم، كما هجم الجراد من الجنوب حتى خيف من المجاعة وجرت نوائب ونكبات أخرى كثيرة. ولقد علمت فيما بعد، لمّا طالعتُ الكتب القديمة، يا سيدي، أن الدنيا هكذا دائماً: اعتلالٌ واختلالٌ، نشوءٌ وزوال،

رقيٌّ واضمحلال إلى ما شاء الله ذو الجلال.

ابتسم المترجم الشيخ عشيق لحكمة الصبي وفصاحته لكنه ظل صامتاً مصغياً بكل جوارحه إلى دفق الحكاية وهي تسيل كجدول.

كان أبي رحمه الله جندياً في جيش السلطان حين شارك في دفع غائلة الأمير الكردي سليم بيك. ثم لما عادت الجيوش السلطانية مظفرةً إلى بغداد كوفئ أبي لبسالته في الحرب وكاد يصبح أونباشياً إلا أن مرضاً ألمَّ به أقعده في الفراش سنتين متتاليتين قامت فيهما والدتي، وهي امرأة من الكوفة، برعايته وتربيتي أحسن قيام. ثم لما تعافى من مرضه لم يستطع أن ينضمّ مرةً أخرى إلى الجيش، فقد سبّب له المرضُ عاهةً في قدميه فصار يعرج عرجاً بيّناً. وقد عيّن له الوالي راتباً من خزينة الولاية قدره خمسةٌ وعشرون قرشاً في الشهر وأقطعنا أرضاً صغيرة زرعها أبي بفسائل النخيل حتى صارت بعد أربع سنوات أشجاراً تتدلى منها أعذاق التمر البهية كأنها قناديل مضيئة.

كنتُ أرافق أبي كلما ذهب لتلقيح النخيل وكذلك كلما حانَ أوان جني التمور في الصيف فأرى كيف يتسلّق الصاعودُ النخلةَ وهو يربط خصره إلى الجذع بجديلة من الخوص فيصعد عالياً حتى يصل إلى العذوق فيقصّها ويضعها في مقطفٍ من القشّ ثم ينزل بما جناه وينثره على بساط تحت النخلة، ثم تقوم نسوةٌ فيجمعن

التمور في قُفَفٍ من الخوص يضعنها على رؤوسهن لنقلها إلى السوق حيث يبعنها هناك. وكان بعض الكسبة يأتون ويشترون التمور من أبي بعد جنيها ثم يضعونها في العدول لتنقلها الحمير بعد ذلك إلى بغداد.

حين بلغتُ السابعةَ من العمر، يا سيدي، أراد أبي أن أسلك سبيلاً غير الذي سلكه هو فأخذني إلى مسجد على ضفة دجلة من جهة الرصافة لأتعلم القرآن ومبادئ الخط. هناك سلّمني إلى خطاط مشهور اسمه درويش بن ياسين كُرْدْزادة بزَّ خطاطي بغداد في النسخ والثلث حتى ذاع صيته وتقاطر إليه التلاميذ من كل الأنحاء.

تعلّمتُ أصول الخط لدى كُرْدْزادة الذي لقَّبناه بالأستاذ فبرعتُ في أنواعه جميعاً حتى إن الأستاذ كان يعهد إليَّ نسخ بعض الكتب والرسائل **كألفية ابن مالك** و**جوهرة التوحيد** و**متن الأجرومية** وغيرها من المتون في أبواب العلم المختلفة. ومما زاد من ولعي بالخط، يا مولاي، أنني تعلمت إلى جانبه صناعةَ الحبر أيضاً على يد الأستاذ فصرت أجد متعةً فائقة حين أُعدّه وأضعه في المحابر. كما أنني أتقنت قطَّ الأقلام وأصبحت أصنع لكل نوعٍ من الخط يراعاً خاصاً به.

ارتجّت العربة حين ارتطمت إحدى عجلاتها بحجرٍ صغير اختار قارعة الطريق مكمناً له، فقطع يونسُ الحديثَ ونظر في عيني الشيخ عشيق بعد أن كانت نظراته معلقةً بندف الثلج التي تهوي من الفضاء

المتّشح بالبياض. استغرب عشيق من وفرة دقائق الأمور في حديث الفتى يونس الذي بدا وكأنه يستظهر درساً أو يقرأ في كتاب، بعكس ما كان عليه قبل قليل في المسجد حين كان غارقاً في لجج الصمت يتأمل بحزن وإعجاب ما حفرته الأيدي الماهرة على جدران المسجد ومحرابه من آياتٍ قرآنية بخطٍّ رشيق. وحين قطع ارتجاجُ العربة المفاجئُ حديثَ الفتى الدافئَ بادره عشيق سائلاً:

- وهل نفعتك إجادتك الخطَّ؟ أعني هل كنت تتّخذ أجراً على صنعتك هذه؟

أجاب يونس بعد أن تكوَّر من أثر البرد:

- أجل يا سيدي. كنت أتقاضى أول عهدي بالنسخ عن كل خمس ورقاتٍ نصفَ قرشٍ أي ثلاثين بارةً. وكنت أنسخ في الشهر خمسين ورقةً بخمسة قروش. ثم صرت أتقاضى عليها عشرة قروش حين عرف الورَّاقون في بغداد حسنَ خطّي وخُلُوَّ ما أنسخُه من الأخطاء.

طرب عشيق لحديث الفتى وثقته بنفسه فعرف أن الله تلطّف به البارحة وساق إليه مصادفةً في مسجد أنطاكية الكبير مَنْ كان يبحث عنه منذ مدة. حدّق قليلاً في الطريق الذي كانت عجلات العربة تترك عليه خلفها دربين متوازيين غائرين في الثلج، ثم أرجع بصره فحدّق في الفتى وقال:

- إذاً أكمل حكايتك يا ولدي. كيف تركتم بغداد ولماذا؟

جذب يونس حقيبته إلى جانبه وقال:

- عشت في رغدٍ من العيش مع والديَّ، ولم ينغص علينا حياتنا سوى وفاة ثلاثة من إخوتي بالحصبة فبقيت الابن الوحيد لأبي وأمي

التي قضت مع والدي سنوات هنية وهي تهتم معه بأشجار النخيل وتعينه في البيع والشراء وأعينهما بما أكسبه من النسخ حتى مات أبي قبل عدة شهور.

لاحظ عشيق تهدج صوت الفتى، فتذكر أباه التاجر رشدي وكيف أنه لم يشهد موته فقال بحزن:

- فليتغمده الله وموتانا برحمته. ولكن كيف حدث ذاك؟

قطع الفتى حديثه حتى أنهى عشيق ترحمّه وسؤاله، لكنه لم يعلّق بشيء بل واصل بالوتيرة عينها:

مات أبي موت الفجأة.

أنا لم أشهد موته فقد كنت في المدينة أدرّب التلاميذ الصغار الذي جاؤوا لتعلّم الخطّ في حجرة الخطاط كردزادة. روت لي أمي كيف أن أبي شعر بألم في صدره فجلس مستنداً إلى جذع نخلة كان الصاعودً، وهو من يصعد جذوع النخل، يقطف في أعلاها أعذاق التمر ويضعها في مقطفه القش. حكت لي أمي أن والدي لم يقل شيئاً حين مات بل مدّ يده اليمنى فتحسّس بها الجهة اليسرى في صدره وصار يعصرها بقوة وامتعض وجهه كمن يلوك شيئاً مُرَّاً ثم ازرقّت شفتاه وجحظت عيناه. قالت أمي إنها نظرت حولها حائرةً ثم أسرعت إليه بإبريق الماء فرأت جذعه يميل إلى اليسار ويسقط.
مات فجأة.

بقيت أمي ملازمةً المنزل حتى انتهت عدّتها، فتقدّم

إليها تاجرٌ بغدادي فتزوجها. لم أحبّ زوج أمي التاجر ولم أستسغ وجوده في بيتنا. كنت أضيق به ذرعاً وكأنه يجثم على صدري حتى جاء يوم قلت فيه لأمي: "أريد أن أسافر يا أمي. لم أعد أطيق البقاء في بغداد. سأذهب إلى بلادنا في السنجق لأزور مسقط رأس أبي وأرى أعمامي وأهلي هناك". دهشتُ حين رأيت أن أمي لم تمانع مطلقاً، بل فوق ذلك نفحتني مبلغاً من المال، ولكنها سألتني: "وهل ستغيب طويلاً؟" أجبتها أنني سأعود حين تنبت نوى التمر التي حملتها معي لأزرعها في بلاد أبي وحين تثمر فسائل النخل الجديدة التي زرعها أبي قبل موته بأيام. شاهدت دمعتين تنحدران بطيئتين على وجنتيها الذابلتين. قبّلتُ يدها. عانقتني بحرارة وصارت تبكي. غادرت حضن أمي، غادرت البيت وذهبت إلى المقبرة فودّعت قبر أبي، وغادرت بغداد أيضاً لأخرج أخيراً مع القافلة المتجهة إلى حلب ومنها أتيت إلى أنطاكية قبل يومين.

أنهى الفتى الأرناؤوطي يونس الفصولَ الأخيرة من حكايته سريعاً. بدا أنه يتعمّد ألاّ يقصّ أموراً كثيرةً كمن يتجاوز الشوك أو الجمر قفزاً، فأهمل الشيخ كل ذلك وصار يصغي لقرقعة العجلات محدقاً بحبور في الغربان على ضفاف نهر العاصي الكئيب وهي تنقر في الثلج كأنها تريد أن تبوح للأرض بسرٍّ حكايةٍ ما.

مراقي الحروف

بعد أن سارت العربة مقدار ساعتين من الزمان أو أكثر بمحاذاة الضفة الغربية لنهر العاصي وهي تهبط جنوباً، اتجهت فجأةً صوب الغرب لتصبح بعد قليل على مشارف قرية ميدان. هناك لفحت ريحُ البحر الرخيّةُ الدافئةُ العربةَ ومن فيها فارتخت قبضة البرد. انفرجت أسارير الفتى يونس وبقي صامتاً يرنو إلى الثلج.

وحين انعطفت العربة جنوباً لاحت من بعيد هضبة مرتفعة تحجب البحر فقال عشيق وهو يشير إليها:

- أترى تلك الهضبة؟ ميدانُ تربض خلفها يا يونس.

- وكم بقي لنا لنبلغها يا مولاي؟

سأل يونس مبتهجاً بقرب انتهاء الرحلة ومدفوعاً بفضولٍ كبير لمعرفة ما وراء الهضبة.

أجاب عشيق بحبور:

- ساعةً من زمان يا يونس، ساعة وربما أقل.

توقفت العربة فجأة. سمع الاثنان، عشيقٌ المترجم ويونسُ النسّاخ، حمحمة الحصان تلاها صوت الحوذي يخاطبه بلطف ثم

يحيد بالعربة عن الطريق ويركنها إلى الحافة ويضع المخلاة على الأرض أمام الحصان. انتهت السماء من وشوشتها البيضاء في أذن الأرض فصحا الجو وراق واختفت الثلوج لتتضح معالم الطبيعة بهيةً بيِّنةَ البهاء.

بقي عشيق في العربة بينما قفز يونس إلى الأرض الموحلة وصار يراقب الأشجار والتلال والمنعطفات وانحناءات الأنهر والسواقي وخطوط الحقول. كان قد اكتسب منذ صغره عادة تشبيه كل ما تقع عليه عيناه، صغيراً أو كبيراً، بحرفٍ من حروف الهجاء العربية. يرى عبّاد الشمس مثلاً فيتخيلها حروف ميم تهزها الريح في مزارعها حول بستان النخيل الذي يملكه أبوه. يرى النخلات فيتخيلها حروفَ ألفٍ خطتها أناملُ مبتدئين في الكتابة فتناثر الحبر في أعلاها. أما المآذن فيراها ألفات رشيقة منتصبة تعلوها أهِلَّةٌ فضية كأنها همزاتٌ لطيفة مرسومةُ بأناة بالغة... وهكذا مع كل حرف.

وحين توقفت العربة ونزل منها صار يحدّق في كل شيء حوله، فرأى خطوطاً بديعة من طبيعة جميلة لم تعهدها عيناه من قبل. كانت ثمة على جانبي الطريق تلالٌ متجاورة مكسوةٌ بأشجار الصنوبر والسرو أمعن فيها فإذا هي هاءات مدوّنة على سطر الأفق بإتقانٍ بالغ. طفق يُركِّب جملاً كاملة المعاني مما حوله وينتشي أيّما انتشاء بما اكتشفه حينذاك. غرق في الحروف ثم ارتقى في مراقيها حتى أذهلته عن كل شيء. وحين ناداه المترجم عشيق ليصعد العربة من جديد لم يسمع صوته، فقد كان يحدق في الغيوم التي بدأت تسطر على صفحة السماء حروفاً بيضاء كثيرة تتحرك.

تذكّر حين تمعّن في الغيوم كلام أستاذه الخطاط كُردْزادة عن أجود أنواع الخطوط: "أجمل الخطّ ما خُيّل إليك أنه يتحرك وهو ساكن"، فانتابته مشاعر في غاية الحزن وهو يستعرض أيامه الحلوة التي قضاها في بغداد مع أسرته الصغيرة حيث كان وحيد والديه والطفل المدلّل لدى جدَّيه. تذكّر أيام الصفاء حين كان خطاطاً يُشار إليه بالبنان ويصفه أستاذه كلَّ حين بأنه ابن مقلة الثاني. أخيراً عاد خياله من بغداد إلى تلك البقعة من الفردوس فسمع بوضوح نداء المترجم عشيق:

- أسرع يا يونس، سنواصل السير.

صعد يونس، المأخوذ بما رأى حوله من حروف رسمتها أنامل الطبيعة، إلى العربة وتكوّر من جديد بالقرب من حقيبته نافخاً في يديه الطريتين يدفئهما بأنفاسه. ابتسم عشيق وقال له بلطف:

- ستتعود على البرد. قد يستغرق الأمر عامين أو ثلاثة أعوام لكنك في النهاية ستصبح مثل أهل هذه النواحي.

- لكنني يا سيدي لن أبقى كثيراً، سأدوّن لك كتابك كما اتفقنا ثم أعود إلى بلادي.

ردّ يونس وهو ينظر باستغراب إلى عشيق الذي بقي يبتسم بمكر ويقول:

- سنرى ذلك لاحقاً.

كان المترجم عشيق قد اتّفق مع الفتى يونس على مبلغٍ معيّن من المال أجرة نسخ سيرته، وقد قدّر الاثنان أن السيرة ستنتهي خلال عشرة أيام بلياليها أكثر أو أقل حسب سرعة الإنجاز، لكن يونس حين

سمع من المترجم الشيخ أنه سيتعود على المناخ البارد بعد عامين أو ثلاثة أعوام انتابته مخاوف شتى وتناهبته وساوس كثيرة حتى إنه شكّ في أمر الشيخ فقال مستنكراً:

- لقد اتفقنا على أيام قلائل يا سيدي.

- وإذا استطبت المقام في قريتنا؟

صمت يونس. لم يعرف كيف يجيب الشيخ الماكر الذي عاد ينظر إلى الطريق الذي تتركه العربة خلفها راسمةً آثاراً غير عميقة على طبقة الوحول الرقيقة. عبقت رائحة البحر من جديد وانكسرت سَوْرة البرد فانفرجت أسارير عشيق المترجم وقال بحنوٍّ لافت:

- لقد رحلتُ إلى روما لأقيم فيها سنوات قلائل ثم أعود ترجماناً إلى بلادي، لكنني قضيت كل عمري هناك ولم أعد إلا كما ترى شيخاً لا يقدر حتى على ضمّ القلم بأنامله. إنني لن أُكْرِهَك على البقاء معي يا يونس. ستغادر في الساعة التي ترغب فيها. لن أذيقك ما ذقته من مرارة الاغتراب وفراق الأهل والأوطان يا بني.

سرى دفء كلمات الشيخ في أوصال صندوق العربة فاستأنس بها يونس بعد أن استوحش مما قبلها من كلمات باردة وقال مبتهجاً:

- سأحدّث مولاي الترجمان عن الحروف إن أذن لي.

- تحدثني عن الحروف؟

- أجل يا مولاي. سأحدثك عن علم خاص لم يضعه أي مصنِّف بين دفّتَي كتاب بل تلقّيته شفاهاً من أستاذي الخطاط البغدادي درويش كُردزادة.

جذب الفضولُ الترجمانَ الشيخ عشيق فشنّف أذنيه وقال:

- وما اسم هذا العلم الشفاهي أيها الفتى النابه؟

- مراقي الحروف يا مولاي، اسمه مراقي الحروف، وهو علمٌ يُعنى بمخارج الحروف وطريقة لفظها ومعنى رسم كل حرف وماذا يشبه وكيف يختلف وقع الحروف من كلمة إلى أخرى. للحروف مراقٍ يا مولاي. لكل حرف، كما قال أستاذي، مرقاةٌ يرتقيها حتى يبلغ قمة الحسن والبهاء.

- مراقي الحروف؟ لم أسمع به من قبل. يبدو أنه علم مفيد وحريٌّ بك أن تنقله من الصدور إلى السطور. هات حدثني إذاً.

امتلأ الفتى الخطاط غبطةً وحبوراً حين أدرك أن الترجمان العائد من بلاد الفرنجة ليس على علم بشيء اسمه مراقي الحروف، فقال منتشياً:

- لكل حرف يا مولاي حين تنطقه صفات خاصة به تختلف عن صفاته حين تدوّنه. وهذه الصفات التي تختلف في النطق والتدوين هي التي نسميها مراقي الحروف. فحرف العين مثلاً أعسر الحروف نطقاً لكنه جميل المنظر بهيُّ الشكل سواء كان في أول الكلام أو في وسطه أو في آخره. أما حرف الشين فإن لفظَه مثلُ شكلِه يشبه المطرَ حين يهمي والدنيا غارقة في السكون.

- والقاف؟

سأل المترجم الشيخ وهو يبتسم. ردّ يونس:

- ولماذا القاف؟

- لأنك أوردت حرفين من اسمي، وأنا أعرف أن حرف الياء ليس من أصل الكلمة، فبقي الرابع وهو القاف.

لم يكن يونس حين سرد بعض خصائص حرفي العين والشين يقصد الحرفين الأولين من اسم المترجم الشيخ أصلاً، لكنه لم ينكر ذلك بل اكتفى بابتسامةٍ ماكرة صغيرة كان من معانيها أنه ما ضرب بالحرفين مثلاً إلا لأنه قصد اسم المترجم فقال:

- القاف من حروف القلقلة يا مولاي الشيخ عشيق. وفي القرآن سورة تسمى سورة قاف تبدأ بهذا الحرف الذي يقول المفسّرون إنه يعني جبلاً عظيماً يحيط بالدنيا. أما من ناحية الرسم فهو يشبه قطةً سمينة مقعيةً تنصب ذيلها وترنو بعينين ثاقبتين، هما نقطتاه، إلى فأرٍ هناك.

قهقه المترجم عشيق حتى دمعت عيناه فمسحهما بكمّ ثوبه. أضحكه ذاك الخيّال الخلاّق لدى الفتى الغريب يونس في تصوير الحروف مما لم يكن قد خطر على باله حتى وهو يعلّم تلاميذَه الطليانَ في روما مبادئَ الألفباء العربية ويرسم لهم الحروف ويلفظها بإتقان وتؤدة.

انتظر يونس حتى انتهت ضحكة المترجم التي غزلتها الشيخوخة بأناملها الخشنة ثم واصل شرحه غير آبهٍ بعدم التعقيب من لدن الشيخ المترجم:

- وللقاف يا مولاي جرْسٌ ثقيل لكنه جميلٌ لأنه يرتقي في اللهاة حتى يصل إلى نقطة ينطلق منها بوقْعٍ كأنه قرعُ أليفٍّ على بابٍ من نحاس.

مضى يونس في وصفه الحروفَ حرفاً حرفاً متحدثاً عن مخارجها ومراقيها وجرسها وما يشبهُ كلُّ حرفٍ منها لفظاً ورسماً حتى بلغ

حرف الياء، والشيخ يناقشه حيناً ويصغي إليه بصمت حيناً آخر ويسهو عن حديثه في أحيان أخرى. أخيراً بلغا قرية ميدان التي كانت رائحة البحر تفوح منها ويُسمع من أرجائها صخب الموج بوضوح. قفز يونس من العربة حاملاً حقيبته منتظراً نزول المترجم الشيخ. تبعه في ذلك الحوذي فقفز بدوره من مكانه وأسرع إلى المترجم الشيخ يساعده على النزول. وما إن استقر عشيق واقفاً على الأرض التي غمرتها طبقة رقيقة من الثلج حتى مشى مبتسماً إلى يونس، بينما انشغل الحوذي بإنزال أمتعته وحقائبه.

ولما حانت من يونسَ التفاتةٌ عجلى إلى جهة الغرب، قبل أن يلج الدارَ الكبيرةَ خلف مولاه الشيخ، صرخ كطفل:

- البحر!

ثم جحظت عيناه من الدهشة.

الفصل الثاني

صلبانٌ في العربة

مضت سبعة أيام بلياليها والمترجم الشيخ عشيق ابن التاجر رشدي الشركسي الأنطاكي يملي على الفتى الأرناؤوطي القادم من بغداد الخطاط يونس بن إيبش سيرتَه من أيام طفولته وشبابه وحتى وصوله إلى البر الإيطالي قريباً من روما ذات يوم من أيام صيف عام ١٧٠٨. وفي الليلة السابعة انتهى الاثنان من الجزء الأول من الكتاب الذي سمّاه المترجم **رحلة الفتيان إلى بلاد الصلبان**، فيما بدأت النار التي أضرمها يونس في الموقد ترقص ابتهاجاً بالحدث الجميل غير عالمة بأن فصولاً أخرى من حطب الحكاية في طريقها إلى الاشتعال تدويناً على بياض الطروس.

لم يكن عشيقٌ المترجم أقلَّ ابتهاجاً من تلك النار وكاد يحاكي رقصَها فصار يذرع الغرفة يغدو ويروح ويقبّل بين حينٍ وآخر رأس خادمه الصبور يونس الذي بدت عليه أمارات التعبَ وعلامات الحيرة مما يفعله مولاه النشوان. أخيراً، وعندما هدأ ضرامُ الجَذَل

لدى الشيخ طلب من خادمه التوجه إلى غرفته ليخلد للنوم. ضمّ يونسُ القراطيسَ والأقلام كعادته ووضعها في أماكنها المعتادة وخرج تلفحُ وجهَه النحيلَ ريحٌ ثرثارةٌ وندفٌ سخية من ثلجٍ أخرس.

***

أشرقت في اليوم الثامن من التدوين، وصادف يوم الأحد، شمسٌ ساطعة أيقظت العصافير وطيورَ البحر باكراً فخرجت من أوكارها وملأت الأجواء بموسيقى بهيجة تناقلتها الأنسام حتى وصلت الدارَ الفسيحة للمترجم. هبّت ريح الشمال قبل ذلك فانقلبت الغيوم على أعقابها وولّت هاربةً صوب الجنوب فصحت السماء حتى بدت ثوباً أزرق خرج لتوه من عند القصّار.

استيقظ يونس بدوره حين أمطرت تلك الشمسُ التي سطعت خارجاً نافذتَه بالقبل فنهض وغسل يديه ووجهه ثم ارتدى ثيابه وحمل الفطور الذي أعدّته الخادمات ليتوجّه به إلى غرفة مولاه حيث اعتاد أن يدوّن ما يمليه من حكايات.

كان المترجم عشيق قد سبقه في الاستيقاظ فهيّأ أدوات التدوين وجلس ينتظر خادمه وقد غمر وجهَه المشرقَ نورٌ جادت به الشمس في الخارج.

ازداد وجه الشيخ إشراقاً حين دخل يونس، وبدا أن فرح ليلة البارحة استطاب المكوث في تلك الغضون والتجاعيد فلم يغادرها. وحين انتهى الاثنان من فطورهما وخرج الخادم من جديد ثم عاد

يحمل بعض الحطب قال له عشيق مبتهجاً:

- أرأيت يا يونس؟ أنهينا في سبعة أيام بلياليها كتاباً برمّته. بقي الكتاب الثاني من **رحلة الفتيان إلى بلاد الصلبان** وهو ما سننجزه بإذن الله تعالى في الأيام السبعة القادمة.

- إن شاء الله يا مولاي.

- لقد أرهقك التدوين أليس كذلك؟

- ليس بعد يا سيدي.

ألقى يونس جملته تلك مشفوعةً بابتسامة رضىً وهو يلقي الحطب في الموقد ويشعله، ثم عاد بهدوء إلى مكانه المعتاد وجلس مستعداً لتدوين ما يلقيه مولاه عشيق المترجم من قبس الحكايات على مسامعه.

- فلنبدأ على بركة الله إذاً. اكتب يا بني:

بسم الله وله المنّةُ والحمد، وأشكره شكراً لا يحصره حسابٌ ولا عدّ. أما بعد، فهذا هو الكتاب الثاني من ترجمة العبد الفقير إلى لطف ربه القدير محمد عشيق الدين بن رشدي الأنطاكي مولداً ونشأةً والطلياني هجرةً ومقاماً غفر الله له ولوالديه وغمرهما باللطف والإحسان فهما منه وإليه. وقد سمّى العبدُ الفقير هذه السيرة **رحلةَ الفتيان إلى بلاد الصلبان**. وفي هذا الكتاب أبسط إن شاء الله تعالى ما جرى لي ولرفاقي الفتيان مذ وطئت أقدامنا أرض الطليان إلى أن غادرتها قبل حين من الزمان.

توقّف المترجم قليلاً، تنحنح ثم طلب كأس ماء أتاه يونس بها. شرب نصف الماء ثم نحّى الكأس وقال:

- أترى يا يونس، أترى أن ما جرى لي قبل أن نبدأ بتدوين الكتاب الأول قبل أسبوع يجري الآن أيضاً! أشعر كأن أقفالاً ثقيلة على لساني تمنعني من الحديث. إن الأقدمين نهجوا نهجاً مملاً في التصنيف. فلهم مقدمات طويلة قبل أن يبسطوا ما يشاؤون قوله بخلاف مصنّفي الفرنجة وكتّابهم. إنني أشعر الآن كأن خيالي عربةٌ غاصت أحصنتُها في وحلٍ كثيف فباتت تعجز عن جرّها. هي البدايات يا يونس، هي البدايات. إنها عسيرة تماماً كما النهايات.

أصغى يونس محدِّقاً في عيني مولاه صامتاً دون أن يُعقِّب بحرف على شكواه لأنه اعتاد منه التوقف وتقليب الكلام على أوجه كثيرة والتراجع عن بعض جمله التي يمليها إلى أن يقرّر بعد لأيٍ تدوين ما ارتضاه. ضيّق الشيخ عينيه ثم خلّل لحيته بأصابع يده اليمنى، فيما بقي الفتى صامتاً وقد أمسك بالقلم بين أصابعه ينتظر إراقة حبره الحائر على الحقول البيضاء البكر المفرودة أمامه في سكونٍ بهيّ.

فجأةً رفع الشيخ صوته وقال في انفعال:

- اكتب يا يونس، سنطرّز صباحنا بحرير الحكاية وننمّقه بوشي الخيال دون اللجوء للمفاتيح الصدئة:

كانت العربة التي أقلّتنا من الميناء الصغير وتوجّهت بنا إلى روما أجمل بكثير من عربتنا التي كان يقودها الحوذي الكردي بوزان في تنقلاتنا بين القرية وأنطاكية والقرى الأخرى. وأول ما لفت نظري فيها نافذتان في

صندوقها الخلفي إحداهما على اليمين والأخرى على الشمال. كان يتوسّط كل نافذة صليبٌ من الخشب ذراعان في ذراع، ويستطيع المرء النظر من خلالها إلى جانبي الطريق. جلست لحظي السعيد بجانب نافذة اليمين مع شمعون النُّصيبيني على مقعدٍ واطئ غطاؤه جلدٌ مدبوغ، فيما جلس على الطرف الآخر مقابلنا الشاب، الذي عرفنا قبل ذلك أن اسمه عبد الله السروجي، يتوسّط كلاً من رفيقَي الآخرَين، جرجس عبد المسيح وسابا الزجّال، اللذين كانا معنا على متن السفينة التي أقلّتنا من قبرص نهاية شهر حزيران.

مضت العربة على الدرب الممهّد جيداً والمرصوف في بعض أجزائه بحجارةٍ سوداء وهي تقرقع بعجلاتها دون أن تأبه لصمتنا الجاثم مثلنا في الصندوق خلفها. تبادلنا النظرات فيما بيننا وبقينا هكذا لدقائق حتى رأينا عبد الله السروجي يخرج من حقيبةٍ بجانبه قِربةً صغيرة قدّمها لسابا الذي كان على يمينه وهو يقول مبتسماً:

- تفضلوا اشربوا يا إخوتي، هواء البحر يسبّب الظمأ.

كان ذلك صحيحاً. فالبحر بمائه الأجاج وهوائه الرطب الممتلئ برذاذ الأمواج المالحة الذي ينثره تلاطمها على الوجوه يدع المرء دائم الشعور بالعطش. شربنا جميعاً من القربة المغطّاة بكيس خيشٍ مبلول

حتى ارتوينا وشكرنا أخانا الجديد على لطفه بنا، ثم خاضت سفائن خيالنا من جديد لججَ الصمت.

لم يكن لدينا حديث ننسجه من غَزْل الكلام بعد أن أمضينا لياليَ وأياماً عديدة على ظهر السفينة نتكلم ونهذر ونهرف حتى شعرنا أنه لم يبقَ في جعبة أي واحدٍ منّا، حتى الراهب بولس، أية كلمة. كنا على وشكِ النعاس حين سمعنا صلصلةً أنيسةً تناهت إلينا من جيب عبد الله السروجي فمزّقت رداء السكون الذي كنّا متدثرين به جميعاً. نظرنا ناحية الصوت الأنيس فإذا بأخينا عبد الله يُخرج بهدوء من جيبٍ بقفطانه الأسود تحت الزنار الحريري الأصفر، حيث سمعنا الصلصلةَ، مجموعةً من السلاسل اللامعة يتدلّى من كل واحدة منها صليبٌ فضّي. استلَّ عبد الله سلسلةً من بين تلك السلاسل ذات الحلقات الدقيقة ومدَّها إلى سابا الزجّال قائلاً بابتسام:

– هذه لك.

ثم استلّ سلسلةً ثانية وناولها لجرجس وابتسامته السابقة ما تزال معلقةً بشفتيه قائلاً:

– وهذه لك يا أخي.

كانت العربة تسير وئيدةً وتبتعد عن البحر الذي كنت أرى فيه شيئاً يربطني ببلادي وقريتي الصغيرة. أشعرتني تعرّجات نهر التيبر والأشجار الغريبة النامية

على ضفتيه والبرّ الإيطالي الذي كانت تنهبه حوافر الحصان وعجلات العربة ونظراتنا الساهمة بأنني أصبحت في بلادٍ أخرى تماماً. كاد الحزن الذي غمرني لحظة الوصول يغمرني من جديد لولا أنني رأيت عبد الله السروجي يعمد إلى سلسلةٍ ثالثة ويرفعها حتى لمعت فضة الصليب في الضوء المنثال من النافذتين ثم قال بسرور:

- أما هذه فلك يا أخانا.

وقلّد شمعونَ النصيبيني السلسلةَ بيده وكلٌّ منهما يبتسم في وجه صاحبه.

راقبتُ ما يجري في حيرةٍ وقلق وبعضٍ من النفور وأنا أرى صلبان الفضة تتدلى من السلاسل ثم تستقرّ على صدور رفاقي. بدوا سعداء ينظرون إليها بشغف الأطفال وبهجتهم ويتحسّسونها بأيديهم كأنهم لم يروا في حياتهم صلباناً على صدورهم! وكم دهشت حين رأيت عبد الله السروجي، ذا الابتسامة المزروعة على شفتيه، التي اكتشفت فيما بعد أنها جزءٌ من ملامح وجهه وتقاطيعها أكثر مما تكون ابتسامةً حقيقية، يمدّ آخر سلسلة لديه نحوي يريد أن يقلّدني الصليب الفضي.

لم أعرف كيف أتصرف. كيف لي أن أتقلّد صليباً وأنا المسلم أباً عن جد؟ كيف لي أن أقبل بصليبٍ يتدلى على صدري ويتأرجح فوق قلبي الذي تعمره آياتٌ بل

سورٌ من القرآن أحفظها عن ظهر غيب؟

مرّت لحظات خلتُها دهراً وأنا أنظر في خوفٍ واشمئزاز إلى الصليب يتأرجح في السلسلة حتى سمعت صوت شمعون النصيبيني يقول:

- صاحبنا مسلم.

- مسلم؟

اتّسعت حدقتا عبد الله السروجي حين سمع كلمة مسلم وكادت عيناه تخرجان من محجريهما وهو ينظر إلي. اربدَّ وجهه اللطيف واختفت تلك الابتسامة التي خِلتُها أبديةً في وجهه، ثم أنزل يده ودسَّ السلسلة في جيبه وهو لا يزال يحدّق فيّ. كرّر السؤال مستنكراً:

- مسلم؟ وما الذي أتى بك إلى روما؟

لم أعرف كيف أردّ. ما الذي أتى بي إلى روما؟ كدت أحيله مع سؤاله الموجع إلى الراهب بولس الذي كان يجلس في مقدمة العربة غير عالم بمحنتي. تلعثمتُ واختلطت الحروف في فمي وأنا أُوشك على الجواب، لكن عبد الله السروجي لم ينتظرني بل اندفع وسط اندهاشنا إلى نهاية العربة وقفز منها لتتوقف العربة بعد لحظات.

ألقى عليَّ رفاقي نظراتٍ نَمَّتْ عن إشفاقٍ وتعاطف، بينما غرقت أنا في الذهول أسترق السمع إلى المحادثة التي تدور على الأرض بين الراهب بولس وعبد الله

السروجي الذي بدا من خلال حديثه غاضباً بَيِّن الغضب. وبالرغم من أنني بالغت في استراق السمع، لعلّي أفهم شيئاً مما يدور بينهما، إلاّ أنني لم أستطع فهم أية كلمة إذ تبيّن لي أنهما يتحدثان الإيطالية التي لم نكن نفهمها وقتذاك.

ولمّا طال الحديث بين الراهب بولس وعبد الله السروجي، أمسك الحوذي الإيطالي بلجام الحصان وقاد العربة إلى حافة الطريق ثم وضع المخلاة على الأرض وجلس غير بعيدٍ عنا على صخرةٍ يقطف أعشاباً نبتت حولها.

مضى وقتٌ غير قصير والراهب يتحدث إلى عبد الله، ثم رأينا الراهبَ من خلال النافذة يهرول إلينا ونسمةٌ رخيّة من الريح تلهو بقفطانه الأسود الطويل وتبعثّر لحيته الشهباء حتى وصل إلى نهاية العربة فصعد إليها وسط دهشتنا جميعاً، وما إن استقر جالساً بجانبي حتى انطلقت العربة من جديد. سأل جرجس المصري مبدِّداً ما نحن فيه من صمت:

– أين تركت بائع الصلبان يا أبانا؟

ضحكنا جميعاً ونسيتُ ارتباكي الذي عراني قبل قليل. ضحك الراهب بولس أيضاً ثم قال:

– عبد الله ليس بائع صلبان يا جرجس. إنه على وشك أن ينهي دراسته وسيعود قبلكم إلى بلاده.

أما الصلبان فهي هدية المدرسة المارونية لكم. لقد أراد معلّم اللغة اللاتينية، القسّ لورنزو، أن يكرمكم ويستقبلكم بهذه الصلبان فكلّف أخاكم عبد الله السروجي بذلك. أتعلمون أيها المباركون أن عبد الله كان يقيم في أحد الأديرة في هذه الأنحاء منذ عشرين يوماً ينتظر قدوم السفينة وقدومكم؟

ثم توجّه إلي باشّاً وقال:

– لا بأس يا محمد عشيق، عبد الله لم يكن يعرف أنك مسلم.

– لكنه حين عرف أنّي مسلم انتفض كمن رأى سبعاً. أنا أعرف أنه لم يعد يستسيغ وجودي هنا. سأصارحك عمي الراهب بالقول إنني نادمٌ أشد الندم لأنني أسلمتك قيادي. هذه بلاد صلبان لا ينبغي لمسلم أن يعيش فيها. لقد جئت كما اتّفقتَ أنت وأبي لأتعلّم الإيطالية واللاتينية ثم أعود إلى بلادي. لم أقطع آلاف الفراسخ في البحر وأتجشّم الأهوال معكم وأخاطر بحياتي لأعتنق المسيحية. لو أردت ذلك لفعلته في بلادي، فلقد كانت كنائس أنطاكية وأديرتها أقربُ إليَّ من كنائس روما. إنني مسلمٌ عمي الراهب، مسلم.

أجبته بجرأة فاجأتني ثم انتابتني رغبةٌ في البكاء لجمتُها مكابرةً وحبست دموعاً كادت تطفر من عيني. نظر رفاقي إليَّ وقد فاجأتهم أيضاً جرأتي ثم حولوا

أنظارهم إلى الراهب الغارق في صمته. أحسست لأول مرة أنه عديم الحجة فاقد الحيلة. هكذا فسّرتُ صمته الذي لم يطل كثيراً.

واصلت العربة سيرها برتابة على الطريق، وصرنا نرى من خلال النافذة على يميننا أعمدة رخام قديمة تحجبها الأشجار ومروجاً خَضِرَة نضرة وعلى شمالنا نهراً يتعرّج ويلمع في نور الشمس. وكم حسدت ذلك النهر الذي كان يسير بعكس مسيرنا، أي إلى جهة البحر. كانت عربتنا تسير إلى حيث ينبع التيبرُ وهو يسير إلى حيث أتينا. تمنيت آنذاك أن أكون موجةً في مياهه أجري حتى المصبّ وأذوب في أمواج بحر الروم ثم أعود إلى ساحل البحر في قريتي لأعانق رملها الحنون.

لم يأبه النهر الثرثار لشكواي ولا حسدي، ولم تنقطع أيضاً ثرثرة عبد الله السروجي مع الحوذي الإيطالي في مقدمة العربة. كان صوته يتناهى إلى أسماعنا يكشف عن نبرةٍ غاضبة عرفت بحدسي أن اكتشافه أمر ديني هو السبب وراء كل ذلك الغضب. التفت إليَّ الراهب حين لاحظ صمتي وشرودي وتجهّم وجهي فقال بعينين تشعّان اعتذاراً:

- أعرف أنك مسلم يا محمد عشيق يا ابن أخي رشدي أفندي. اعذرني فلقد سهوتُ، في غمرة الانشغال بالوصول إلى الميناء وتأمين نزولكم إلى

البر، أن أذكر لأخيك عبد الله السروجي أنك مسلم. لا تَوْجَلْ، فإنني سأتدبّر الأمر الآن وسترى.

لم تمض دقائق حتى وصلنا إلى مكان ينعطف فيه النهر حتى يصبح كالهلال فانعطفت العربة إلى اليمين ثم توقفت. عند ذاك قال الراهب بهدوء:

- سننزل جميعاً لتعوموا في النهر ثم نذهب لزيارة كاستيللو دي جوليو.

ظهر جلياً أن الراهب بولس، وهذا ما اكتشفناه لاحقاً، على علم تام بمحطات توقفنا واستراحتنا، ويعرف تفاصيل الطريق المحاذي للنهر من الميناء إلى روما، إذ ما كنا نمر بجانب تلة أو ربوة حتى يسميها لنا ويشير إلى القرية القابعة عندها ويحدثنا عن القرية التي تليها، ثم يخبرنا عن عدد الفراسخ المتبقية حتى وصولنا روما.

نزلنا جميعاً فلفح وجوهَنا حرٌّ افتقدناه طويلاً؛ حرٌّ منعشٌ جاف غير ما كنا عليه خلال أسابيع كثيرة في عرض البحر حيث كان الهواء الرطب يُثقِل على رئاتنا الغضة فتَضِيقُ أنفاسُنا ونُصاب بالدوار والغثيان وسوء المزاج. راقبت بسرورٍ كبير انعطافة النهر الشبيهة بالهلال وقلت في سرّي: "هاهو ذا أول هلال ألمحه في بلاد الصلبان اللعينة هذه"، ثم راقبت وجوه رفاقي فوجدت السرور يطفو عليها جميعاً، وتبيّن لي أن كل

الأمزجة تبدّلت بفضل وجودنا على البر وبفضل ذلك الحرّ الإيطالي الجاف اللطيف.

أمر الراهب بولس رفاقي بالنزول إلى النهر الذي كان يقع على يسارنا ويبعد عنا قريباً من مئتي ذراع مشيراً عليهم ألا يبتعدوا عن الضفة ويخوضوا في مياه النهر أكثر من أربعين ذراعاً، فنهر التيبر، كما قال، عميق في وسطه والأنهار كلها تصبح أكثر عمقاً وأشد جرياناً حين تنعطف. انحدر الرفاق جذلين صوب النهر، ولمّا هممت أن أتبعهم أمرني الراهب بالبقاء بإشارةٍ من يده ثم نادى على عبد الله السروجي الذي كان لا يزال يثرثر مع الحوذي في ظل شجرة زيتون كثيفة الأغصان سامقة يسمّيها الطليان أوليفو:

– تعال يا عبد الله، تعال أعرّفك على ابن أخي الفتى الأنطاكي محمد عشيق.

تباطأ عبد الله في المجيء. رأيته يمدّ يده إلى فرع صغير من الشجرة ثم يرفع رأسه كمن يبحث عن عصافير على الأغصان، ثم صار يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى حتى سمع الراهبَ يناديه للمرة الثانية فانحدر نحونا بوجهٍ متجهّم غربت عنه تلك الابتسامة المشرقة المزروعة على شفتيه والتي أشعرتني بالطمأنينة حين صعدنا العربة أول مرة، ولمّا وصل إلينا قال بخضوع:

– نعم يا أبانا.

طلب منا الراهب أن نجلس على الأرض فجلسنا مستقبلين النهر حيث نزل رفاقي يسبحون ويتراشقون بالماء تحت أشعة الشمس الخاطفة، وحين آنس الراهب منا سكوناً يتيح له الكلام التفت إلى عبد الله وخاطبه بلطف:

– يا عبد الله، سمعت أنك اعترضت على دين هذا الفتى الأنطاكي.

– يا أبانا...

حاول عبد الله أن يقاطع كلام الراهب إلا أن الراهب أردف بهدوء:

– دعني أكمل حديثي يا بني ثم قل ما بدا لك. إن كثيراً من المفتين في الديار العثمانية لا يجيزون قدوم المسلم إلى بلاد الفرنجة ويسمونها دار الكفر. وها أنت ذا أيضاً تعترض على ذاك ولا تجيز قدوم أحد من المسلمين إلى هذه الديار. ولو فكّر كل فريق كما تفكّر أنت وأولئك المفتون في بلاد آل عثمان لانزوى كلُّ قوم في حدودٍ ضيقة وانعزلت كلُّ طائفةٍ عن الأخرى كما تتحصّن السلحفاة في درقتها والحلزونة في قوقعتها. إن الاختلاف يا بني آيةٌ من آيات الربّ، فقد شاء جلَّ وعلا أن يختلف البشر في الألوان والألسن والأديان، ولو أراد لجعلهم أمةً واحدة. ألا ترى أن الدنيا تصبح أجمل ما تكون حين تمتلئ بأزهارٍ شتّى وثمارٍ مختلفة الطعم

واللون وهضاب وسهول وأنهار وصحاري وبحار وجبال وشمس وقمر ونجوم! يا عبد الله، إن الكون كله قائم على الاختلاف ولا يجمعه سوى الحب، ولولا هذا الحب لما دارت الكواكب والأنجم في أفلاكها.

إن دين عشيق لن يضرّك يا عبد الله، كما أن دينك لن يضره إن أنتما بحثتما عمّا يجمع أحدكما إلى الآخر.

انظر إلى تلك الشجرة التي كنت تستظلّ بها الآن يا عبد الله. انظرا إليها أنت وعشيق، إنها زيتونة لم تبخل على أحد بأفيائها، وهي لا تسأل عن دين أيّ مخلوقٍ يستظلّ بظلها. ثم انظرا إلى أشجار السرو هناك؛ أسفلَ البرج الشمالي من كاستيللو دي جوليو.

نظرنا خلفنا، أنا وعبد الله، إلى حيث أشار الراهب بإصبعه، فإذا عدة شجرات باسقات من السرو تلقي بظلالها على جدران البرج وسربٌ من الحمام يحوم فوقها ثم يحطّ على أطراف البرج. وحين أدرك الراهب أن أبصارنا استقرّت حيث أشار، واصل قائلاً:

- إنكما تجدان فرقاً كبيراً بين هذه الزيتونة وتلك السروات، لكنكما إن دققتما النظر لرأيتما أن ما يجمع بين السرو والزيتون أكثر بكثير مما يفرقهما. الاختلاف في الظاهر يا ولديَّ، والعبرة بالباطن. إسلام عشيق مثل مسيحيتك يا عبد الله. ومادام عشيقٌ يقبل بك أخاً في الإنسانية ولا يسعى في إيذائك وسفك دمك فهو

صاحبك ولا عليك من عقائده.

وما إن انتهى الراهب من جملته حتى سأله عبد الله السروجي دون أن ينظر إلى أيٍّ منا:

- لكن هل سيقبل القس لوسيانو والبطاركة في روما بذلك؟

فردّ عليه الراهب بنبرة نمّت عن ضيق صدر وتبرّم:

- هذا أمر يخصّني ولا يخصّك يا عبد الله، فأنا تكفّلت عشيقاً وأنا أتيت به.

ثم عقّب بلهجةٍ فيها كثيرٌ من الرقّة كمن ندم على نبرته القاسية:

- والآن رافق أخاك عشيقاً إلى النهر يا عبد الله الطيب وسأبقى هنا ريثما تنتهون من السباحة. اغسلا قلبيكما من الكراهية قبل جسديكما.

تقدّمني عبد الله وانحدرنا إلى النهر صامتين.

حين انتهينا من السباحة انتعشت أجسادنا وأرواحنا وشعرتُ ببعض الألفة تجاه عبد الله السروجي حتى إننا تراشقنا بالماء قليلاً، وهذا ما أثار دهشة رفاقي الآخرين. رأيت جرجس عبد المسيح، الفتى المصري من المنيا، يغمز لسابا الزجال اللبناني الذي بقي يحدق فينا مذهولاً. خرجنا من النهر وارتدينا ثيابنا ثم توجهنا صوب برج كاستيللو دي جوليو، كما وعدنا الراهب بولس، فاستقبلنا بعضُ الفلاحين العائدين من قطاف

العنب ثم تقدّم رجلٌ صوبنا مبتسماً وقدّم للراهب قُفَّةً صغيرةً مليئةً بالعناقيد، فشكره الراهب ثم وزّعها علينا وقال مبتسماً:

- حلاوة هذا العنب ستنسيكم عنب أوطانكم.

تناولت عنقودي ونفخت عليه أزيل الغبار عن حباته اللذيذة وقضمتها حبةً حبة، وكذلك فعل رفاقي. كان الراهب قد ابتعد قليلاً وصار يتحدث إلى مجموعة من الكرَّامين. وحين انتهينا من تناول العناقيد صفع جرجس وجهه بكفّيه صفعاً خفيفاً وهو يقول:

- يا للهول! لقد نسيت اسم مدينتي. أرجوكم أخبروني ما اسمها؟ لقد نسيت وطني كله وليس فقط عنب الوطن.

كان كلام الراهب عن نسيان الأوطان بلاغةً فجَّةً خفّفت سخريةُ جرجس قليلاً من فجاجتها، حتى إنني رأيت عبد الله السروجي يبتسم ثم يرفع صوته بالضحك مما لفت نظرَ الراهب فترك حديثه مع أولئك الكرَّامين وعاد إلينا. من هناك سرنا وتجولنا في البرج قليلاً بعد أن تزوّدنا بالماء ثم عدنا إلى العربة وانطلقنا إلى روما من جديد.

ظل رفاقي يضحكون من حركة جرجس وكلامه بينما بقيتُ واجماً أنظر ناحية اليسار إلى نهر التيبر الذي كان يجري صوب الغرب. تخيّلتُه ينحدر ويهدر

مثرثراً "من مثلي؟ من مثلي؟" حتى يتفاجأ بالبحر أمامه فينقلبُ غرورُه دهشةً وثرثرته صمتاً وعنفه انكساراً ثم لا يجد وقتاً للعودة فيتلاشى في أعماق البحر ويختلط بأمواجه. تخيلت أن النهر المغرور يكتشف هناك بعد فوات الأوان حقيقة أنه ليس سوى نهر صغير يصبّ في البحر بعد أن يقطع آلاف الفراسخ واهماً أنه المحيط الأعظم. أما على يمين العربة فقد صدمتني الصلبان على طول الطريق المسمّى "فيا أوستينسيس" وانطلاقاً من برج كاستيللو دي جوليو وحتى باب أوستيا في المدخل الجنوبي الغربي لروما. صلبان حيثما تلفّت المرء وأنَّى نظر: على أبراج الأديرة، على شواهد القبور ومداخل القرى، على البيوت والجدران، وكذلك على الطرقات المحفوفة بشجيرات العليق وفي كل مكان، ناهيك عن صدور رفاقي التي تزيّنت بصلبان عبد الله الفضية.

شعرت بتلك الصلبان تحاصرني فتكاد تخنقني وتسلب روحي، تخيلتها خناجر تنغرز في قلبي، عصابات تُلقى على عيني فتعميني عن وطني وديني وتدخلني متاهات الروح الأليمة. استبدّت بي لهفةٌ قوية لا حدود لها لرؤية ولو مسجدٍ يتيم يعلو مئذنتَه هلالٌ نحيل يبدّد كآبة منظر تلك الصلبان التي بدت نصالاً تلمع تحت أشعة شمس إيطاليا الغربية.

نواقيس روما

عند الظهيرة ارتفع صوتٌ رخيم من المسجد الوحيد الصغير يدعو للصلاة. توقّف المترجم وعلت وجهَه إشراقةٌ بهيّة تبعها حزنٌ ظاهر، وسرعان ما رأى الفتى يونسُ مولاه عشيقاً يغرق في الصمت حتى انتهى المؤذّن من رفع الأذان فقال:

– هل لك أن تأتيني بإبريق ماءٍ دافئ؟ سأتوضأ وأصلّي الظهر، ولك أن تنصرف لشؤونك ثم تعودَ إليَّ مع غروب الشمس لنكمل بقية الحكاية لهذا اليوم.

فرح الفتى يونس لهذا الطلب فقد أرهقه التدوين المستمر والانحناء على الورقات منذ الصباح، وهو ما لم يألفه خلال الأيام الثمانية الماضية، حتى شعر بالخدر يسري في أنامله الطرية وركبتيه المثنيتين وبآلام بين كتفيه. نهض بتثاقل غير معهود منه وغاب ليعود بعد قليل حاملاً إبريق ماءٍ ساخنٍ هيّأته الخادمات فوضعه في عتبة الحجرة الصغيرة وفرش السجادة باتجاه القبلة ثم رفع عدة التدوين ووضع كل شيء في مكانه وخرج تاركاً المترجم غارقاً في صلاته وتأملاته الحزينة.

كان الجو دافئاً ولطيفاً حين غادر يونس الغرفة إلى الباحة الخالية فرأى أن الثلج قد ذاب إلا ما كان لائذاً بالظلال الباردة مختفياً عن مداعبات أنامل الشمس الملتهبة. غمرته بهجةٌ غامضة فتناول قليلاً من الزاد واتّجه إلى البحر يصغي لموجه حتى رأى الشمس تغرب فعاد أدراجه إلى غرفة مولاه ليجده جالساً على كرسيه يتأمل النار وقد غادر حزنُ الظهيرة ملامحه.

هشَّ الشيخ إذ رأى يونسَ عائداً مع غروب الشمس فقال بحبور:

- تفوح منك رائحة الأمواج يا يونس. إنني على يقين أنك قادمٌ من البحر. أليس كذلك؟ لقد كنتُ مثلك يا بني، حتى إن الحنين كاد يقتلني في أيامي الأولى في روما. كنت أقف على ضفة نهر التيبر أوان الغروب من كل يوم أحدّق في موجه وأُحمِّله لوعتي وحنيني إلى قريتي. لا يجعل الغربةَ غربةً إلا الحنينُ وألمُه. اجلس يا يونس، اجلس وهات القراطيس والأقلام ولنكمل الحكاية.

اتجه الفتى إلى عدة التدوين ففرشها على الأرض وجلس ينتظر الإملاء، فيما نزل الشيخ عن الكرسي وجاء حتى جلس إزاء يونس يملي عليه جزءاً آخر من سيرته التي سمّاها **رحلة الفتيان إلى بلاد الصلبان**:

> عند الظهر، قريباً من الساعة الثانية عشرة لاحت لنا أسوار مدينة روما. شاهدنا تلالاً متماوجة وأشجاراً خضراء تفيّأ ظلالَها رجال بقبعات عريضة ونساء بمظلات بيضاء تقيهنّ حرّ الشمس. كانت عربات كثيرة محمّلة بالنبيذ وببضائع أخرى متنوعة تتجه إلى داخل المدينة من دروبٍ شتى. كل شيء بدا غريباً لي:

أزياء الناس، أشكال العربات، وقع عجلاتها على الطرق المبلطة بالحجارة السود ورطانة اللسان الإيطالي، رائحة الأرض، الشمس والطيور وقطع الغيوم القليلة التي كانت تزين سماء روما تلك اللحظة، الكلاب الجميلة الكثيرة التي ترافق الناس، والأشجار الكثيرة التي تحفّ بالطريق ولا أعرف لها اسماً. وكم دهشت حين رأيت فتياناً يقفون وأمامهم أقمشة مثبّتة بألواح خشبية ينقشون عليها ما تراه أعينهم من تلك الأرجاء الجميلة.

غريباً كنتُ في أرضٍ غريبة. لم أعرف إن كان رفاقي يشعرون مثلي بتلك الغربة أم لا. كنا واجمين جميعاً. كان ذلك صمتَ اللقاء الأول ورهبةَ الوصول إلى المجهول. وأخيراً اقتربنا من بوابة أوستيا. رأينا على جانبي البوابة برجين شاهقين مبنيين بالقرميد الأحمر ذكّرني شكلهما بما رأيتُه في قلعة حلب. وسط ذلك الوجوم والرهبة التي غمرتنا بسبب ساعة الوصول، فوجئنا بجرجس المصري يقفز كالهرّ من العربة ويركض صارخاً كالمجانين: "هرم. هرم. هرم". لم نستبن الأمر ولم نعرف ماذا يقصد جرجس، ولم نفهم كذلك لماذا ركنت عربتنا إلى جانبٍ من الطريق ظلّلتْه شجرة قيقب كبيرة وتوقّفت هناك. نزل الراهب بولس وهو يضحك وينادي رفيقنا المصري: "تعال يا

جرجس، تعال فسنزور الهرم جميعاً". لم نفهم أيضاً ماذا يقصد الراهب بالهرم. كان جرجس يردّد كلمة هرم ويلفظها بدهشة ولهفة كأنه ينادي أمه أو أباه، ثم يلمس بين برهةٍ وأختها حجارةَ ذلك البناء الذي نمت على أسطحه أعشاب ونباتات متنوعة حتى قمّته المدبّبة كأنها رأس خنجر. وعرفنا فيما بعد أن الطليان يسمّون ذلك البناء المكسو بحجارة من المرمر "لا بيراميدى جيستيا" أي هرم جستيوس، وعرفنا أيضاً أنه بني قبل ميلاد المسيح بأعوام حين غزا الرومان أرض مصر وعادوا منها ظافرين.

أمرنا الراهب بالنزول فنزلنا. ظلَّ جرجس يتقافز كالسعدان بالقرب من ذلك الهرم الشامخ على الجهة اليسرى من البوابة الجميلة ذات الأبواب القوسية، وحين لمحنا صاح بفرح كالأطفال:

– هذا هرم. هرم يشبه أهرام مصر. لكنه صغير. إنه هرم صغير.

ابتسم الراهب بولس وقال بحنان:

– أجل يا جرجس إنه هرم. إنه قبر القائد الروماني جستيوس بن لوسيوس من روما، وقد استغرق بناؤه ثلاثمئة وثلاثين يوماً كما تشير إلى ذلك هذه الكتابات المحفورة على حجارة الهرم. تعال الآن، لقد أوشكنا أن نصل. بعد قليل سنكون في المدرسة المارونية بعد

أن نمرّ بكنيسة القديس سابا. تعال.

عاد الراهب وصليبه يلمع تحت وهج الشمس، فتبعه جرجس وهو لا يزال يحدّق في الهرم الجميل وصعد العربة، ثم صعدنا جميعاً وراءه بينما سار الراهب صوب البوابة ماشياً وهو يومئ لنا بالانتظار حتى يعود.

كان جنديان من حامية البوابة يرقبان الداخلين إلى روما لمّا اقتربت عربتنا منهما. رأينا الراهب يتحدث إليهما ويريهما رزمةً من الأوراق تثبت شخصياتنا وأسماءنا ليسمحا لنا بالدخول. استطعت أن أميّز علامات امتعاض واضحة تغمر وجه عبد الله السروجي حتى خلته سيشي بي بعد قليل. صار قلبي ينبض مثل نجمة الصبح، وصرنا أنا ورفاقي الفتية الآخرون نتبادل النظرات بصمت أطبق فكّيه علينا سرعان ما تحوّل إلى خوف حين رأينا السروجي ينزل بسرعة ويتجه إلى حيث يتجادل الراهب وجنديا حامية البوابة. وكم دهشنا حين لمحناه في ظلال الظهيرة يتحدث أيضاً إلى الجنديين ثم ينظر ناحية العربة في حركة مريبة. لأول مرة في حياتي تمنيت لو كنت مسيحياً. قلت في نفسي: "حتى لو وشى بي فسأكذّبه وأقولِ إنني مسيحي وإن اسمي هو يوحنا كما هو مدوّن في الورقة التي في حوزة الزاهب بولس. وسأقول إن خلافاً بيني وبينه دعاه إلى الافتراء علي". كانت تلك فكرة ساذجة

حقاً ولا تليق إلا بطفل. كانت فكرة نجمت عن رهبتي مما قد يحدث لو اكتشف الجنديان أنني مسلم من بلاد العثمانيين يريد دخول روما. لم أكن مسيحياً ولم أكن قادراً على إثبات مسيحيتي لو طُلِبَ مني ذلك. وكم ندمت على أفكاري الحمقاء تلك وقرَّعت نفسي على استعدادها للتنكّر لعقيدتي في أول تجربة. أفكارٌ شتّى تلاطمت في بحر خيالي كدت أغرق فيها لولا أنني سمعت صوت جرجس يقول بمرح:

– أيها الجبان، لا تقلق. سنشهد كلنا على أنك مسيحيٌّ طاهر من نسل مسيحيٍّ طاهر وأن اسم أبيك هو جرجس مثل اسمي. لا تقلق يا يوحنا يا بن جرجس الأنطاكي، لا تقلق يا جروي الصغير.

ثم أطلق ضحكةً خفيفة بدّدت رهبة الانتظار.

مدّ جرجس يده إلى قلادة الصليب فنزعها من عنقه وتابع قائلاً:

– هاك يا عشيق، ضع الصليب في عنقك فهو حرزٌ لك من كل مكروه.

مددت يدي وتناولت منه الصليب وأنا حائرٌ في أمري. لكن حيرتي تلك لم تطل، إذ سرعان ما عاد الراهب ووجهه ممتلئ بالرضى، فصعد العربة من جديد وأمر الحوذي بمواصلة المسير. كان عبد الله السروجي يتبعه متثاقلاً ثم قفز إلى العربة واتّخذ مكانه صامتاً

بجانب يعقوب النصيبيني، فانطلقت العربة ومرّت من الباب اليمين والجنديان يلوّحان لنا مبتسمين. وحين عبرت العربة البوابة ودخلنا روما ومررنا بجانب أول كنيسة رأيتها هي كنيسة القديس سابا تنفستُ الصعداء ورددتُ صليب جرجس إليه. قال جرجس مازحاً:

- يا عشيق، ستندم لأنك تتخلى عن الصليب. هذه بلاد تتنفس صلباناً ونواقيس.

كان الوقت ظهراً وكانت روحي وكل جوارحي مهيأة لتستقبل الأذان كما جرت العادة في بلادنا، فشنفتُ أذني جيداً وأنا متكوّر في العربة تسير بنا ببطء على الدرب المؤدي إلى المدرسة المارونية بعد أن عبرنا بوابة أخرى أسفل هضبة آفينتينوس، وهي إحدى تلال روما السبع. مضت الدقائق بطيئةً دون أن أسمع سحر الأذان الذي ألفته الروح قبل السمع. وفجأةً ضجّت الكنائس بقرع النواقيس.

جفلتُ.

تناهى إلى أسماعنا رنين متواصل لعشرات النواقيس حتى إنني ظننت أن روما مدينةٌ ليس فيها سوى الكنائس والأديرة. صار رفاقي يرسمون بأيديهم صلباناً على صدورهم ووجوهم مستبشرةٌ ينظرون بسعادة إلى تلك الأبنية الجميلة والهياكل العظيمة وأشجار السرو والصنوبر التي تمتلئ بها الهضاب والحدائق وباحات

البيوت. أما أنا فقد أحسست بطعم مرٍّ في فمي سرعان ما انحدر إلى حلقي فبلعتُ ريقي وانتابني شعورٌ بالاشمئزاز والقرف ممزوجٌ بالخوف. شعرت أنني سقطت في حفرة وغصت في وحلها. وددت في تلك الساعة لو أنني أصمّ. ربّاه كيف حدث معي هذا؟! أبتاه لم جعلتني أترك بلادي حيث ترفرف الأهلّة مثل أجنحةٍ لطيفة فوق المآذن التي تصدح بالتكبير؟ لماذا أكرهتني يا أبي على الرحيل إلى بلادٍ لا أرى فيها سوى الصلبان الكئيبة ولا أسمع منها سوى قرع النواقيس البغيض؟

تناوشتني هذه الخيالات والعربة تمرّ بنا بمحاذاة النهر فنرى الأبنية الفخمة العظيمة وأعمدة الرخام والتماثيل الجميلة. كان عبد الله السروجي كلما مررنا بجانب أحد المعالم أشار إليه معلناً بخيلاء اسمه الإيطالي. عرفنا أولاً كنيسة سان سابا ثم هضبة آفنتينوس وبناء البانثيون وجزيرة إنسولا والكولوسيوم وغير ذلك من العمارات والآثار والأبنية الرائعة التي بهرت أبصارنا وخفقت لها قلوبنا.

أخيراً توقفت العربة قرب بناءٍ حجري طغى عليه اللون الرمادي فنزل الراهب أولاً وجاء ليقول لنا بفرحٍ بالغ:

– ها قد وصلنا أيها المباركون. إنكم الآن في روما. إنكم يا فتيان اللغة وتراجمة المستقبل ستمكثون

في هذه المدرسة إلى أن تنتهوا من دراستكم فتعودون إلى بلادكم. انزلوا وهاتوا أمتعتكم لينقلها الحوذي إلى الداخل.

نزلنا وأنزلنا أمتعتنا التي أخذ الحوذي ينقلها إلى داخل بناء المدرسة. عاونه في ذلك فتيانٌ آخرون، بقبعاتٍ بيضاء صغيرة، خرجوا من البناء الحجري الكئيب حين سمعوا جلبة العربة وقرقعة عجلاتها. رأيناهم ينكبّون على يد الراهب يقبّلونها باحترام ثم يسلّمون على عبد الله السروجي وينظرون إلينا بفضولٍ تفضحه العيون.

***

عشت أول سنة في ما يشبه الكوابيس. كان قرع النواقيس يستفزني أيّما استفزاز. كل رنّة كأنها نصل مدية يُمرِّره قصّابٌ جلف على حنجرتي. أحياناً، وخاصةً في أيام الآحاد، كنت آتي بأقمشة وجدتها في إحدى حقائب أمي التي أرسلتها معي وأحشو أذنيَّ بخرق منها لأدرأ عنهما صوت النواقيس. قلت في نفسي إنني لن أستطيع العيش في هذه المدينة التي يشوِّهها منظر آلاف الصلبان وتلوِّثها رنّات مئات النواقيس. سأعود إلى بلادي مهما كلّف الأمر. سأخبر الراهب بنيّتي، فإن رفض سأهرب على متن أول سفينة

تغادر من ميناء أوستيا إلى أي ميناء من موانئ الشرق. سأفعل كل شيء إلا البقاء في هذا البلد الكافر.

ألا توجد في هذا البلد مئذنة نحيلة، وحيدة مثلي تصدح بالتكبير يا الله؟ لماذا رميتني هذه الرمية يا إله العالمين؟ وما هذا الامتحان؟ إنني صغير يا رب ولست أهلاً لتلقيني في هذه التجربة الأليمة. هكذا صرت أناجي ربي سراً كلما صلّيت وتوجّهت إلى القبلة التي حدّدها لي الراهب بولس ثم شُغل عني بأعماله الكثيرة ورحلاته العديدة.

صرت أترك المدرسة وأغافل رفاقي عصر كل يوم جمعة حين تنتهي الدروس وأخرج وحيداً لأذهب إلى ضفاف التيبر وأحدق ساعات طويلة ناحية الغرب حيث ينحدر النهر ليصبّ في بحر الروم. هناك كنت أتلفت حولي وجلاً وحين أرى أن لا أحد هناك أُخرج من كشكولٍ معلّق على كتفي قراطيسَ وضعتها أمي في إحدى الحقائب. بدأت أرسم عليها أهِلّةً ومآذنَ ثم أطوي كل قرطاس في هيئة زورق وأضعه في الماء ليجري ويتهادى مع التيار فأرقبه بلهفة حتى يبتعد ويغيب عن ناظري. كنت أشعر أن جزءاً من روحي يستقلّ تلك المراكب الورقية الصغيرة التي تعلّمت صنعها مذ كنت طفلاً، فأفرح وكأنني أعود مع تلك الأهلّة التي رسمتها إلى بلادي. كان ذلك يذكّرني بأيام

طفولتي حين كان أبي يأخذني إلى ضفة نهر العاصي الجنوبية قبل أن يصبّ في البحر فيصنع لي مراكب صغيرة ويدفع بها للماء فتترنّح ثم تجري مع النهر وسط دهشتي وصيحاتي الطفولية.

بعد مضيّ شهرين على وصولنا إلى روما وتعرّفي على ما يحيط بي من أمكنة صرت أخرج في زيارات خاطفة إلى غابات قريبة في الجهة الغربية من المدرسة المارونية فأسند ظهري إلى جذع شجرة سرو سامقة أو إلى جذع صفصافة أو زيتونة هرمة وأرفع صوتي بالأذان ثم أبكي. كنت أقف متوجّساً بجانب كل شجرة فأحفر على جذعها صورة الهلال وأبقى أحدّق فيها طويلاً تتخاطفني خيالاتٌ شتّى وأفكارٌ تتلاطم كموج البحر حين تشتد العواصف. لا أدري ما الذي جرى لي. غاب الراهب بولس وسافر إلى الشرق فشعرت باليتم. أما رفاقي فلم يأبهوا لا بغياب الراهب ولا بحالي، بل كنت أراهم فرحين كأنهم لم يهجروا أوطاناً ولم يغادروا أهلين وراءهم، بل كان المرء يخالهم من سرورهم طيوراً غادرت أقفاصها. كنت أنا الوحيد ذلك الطائر الحبيس الذي غدرت به الفخاخ فأوردته قفصاً سقفه نواقيسٌ وجدرانُه صلبانٌ وبابه موج البحر.

انشغل رفاقي بدروسهم وانكبّوا على تعلم الإيطالية واللاتينية وصاروا يتحدثون فيما بينهم بهما. أما أنا

فقد شغلت نفسي بالحنين إلى قريتي وانتظار جواب رسالتي، التي أرسلتها إلى أبي مع الراهب الماروني بولس عبد النور، والمواظبة على رسم الأهلّة ورفع الأذان بصوتٍ شجيّ خفيض في الغابات القريبة وعلى ضفاف التيبر المعشبة الندية. كثيراً ما حفرت بجانب الأهلة التي رسمتها اسم إستر، تلك الفتاة اليهودية التي شغفتني حباً في صباي؛ الفتاة التي كانت تأتي مع أبيها الصفّار إلى القرية وتأخذ المواعين لتصقلها وتبيضها. كنت أمعن النظر في الاسم الحبيب لكن سرعان ما كانت تحجبني عن رؤيته غلالة من الدمع.

بقيت على هذه الحال حتى ناداني عبد الله السروجي ظهيرة يوم جمعة بعد مضي ستة عشر شهراً على وصولنا إلى روما وانتبذ بي ركناً في باحة المدرسة. كان الصليب الذهبي المتدلي من سلسلة على صدره يبهر بصري وهو يعكس نور شمس الخريف. وكم دهشت حين أخرج من تحت زناره كراساً من كراريسي كنت قد ملأته بكلمات الأذان وصور مآذن تعلوها الأهلّة والأحرف الأولى من اسم إستر واسمي. مددت يدي لآخذ الكراس لكن عبد الله سحبه بحركة سريعة إلى الوراء وقال لي بوجه متجّهم وصوت يشبه الوشوشة:

– لقد عرفتَ منذ اليوم الأول أن هذه البلاد هي بلاد صلبان ونواقيس، فماذا جئت تفعل هنا أيها المسلم؟ إن

كنت في شوق لسماع صوت المؤذنين المزعج فغادر هذا الصقع إلى حيث تضجّ مآذنكم بالتكبير. عد إلى موطنك لتشبع من النغم النشاز يا محمد يوحنا.

ذهلت.

لمست في كلامه نبرةً شديدة القسوة وسخريةً جارحةً مُرَّة حين أضاف اسم يوحنا إلى محمد، ولمّا نظرت إلى عينيه رأيتهما تقدحان شرًّا وكراهية. لم أعرف كيف أردّ ولا بمَ أجيبه. لقد أخرستني المفاجأة فظللت واجماً مثل تمثال أحدّق في عينيه المليئتين بلمعة وحشية كأنهما عينا ضبع. لم يبدّد رهبة تلك الظهيرة القاسية إلا صوت تردّد صداه في باحة المدرسة:

- دوفى ساي عبد الله؟

كان ذلك صوت القس لوسيانو، معلّم اللغة الإيطالية يبحث عن السروجي. بحركة خاطفة أخفى عبد الله كراستي تحت زناره بسرعة ثم غادرني وهو يقول بنبرة وعيد:

- سنلتقي مساءً أيها المسلم العنيد. لم ينتهِ حديثنا بعد.

صمت المترجم برهةً ثم نظر في عينَي الفتى يونس فقرأ فيهما بعض الفضول. ابتسم كمن يريد محو رهبة المشهد الذي أملاه عليه آنفاً وقال:

- دوفي ساي استفهام بالإيطالية ويعني أين أنت؟ ولقد كان هذا

السؤال يا يونس حبلاً تدلّى من الغيب لينقذني من بئرٍ عميقة رماني فيها عبد الله السروجي الماكر في ذلك النهار الخريفي الطويل.

- وهل تحدثتما مساءً؟

- هذا ما سندوّنه فيما بعد. ضُمَّ قراطيسك والأقلام فقد حان وقت العشاء وسنرجئ بقية الحكاية إلى الغد. لن أملي عليك الليلة شيئاً يا ولدي فقد أرهقتك بالتدوين.

أرهق التدوينُ الفتى الأرناؤوطي النحيلَ يونس فعلاً، فصار يستعجل الكتابة، وهو ما لفت نظر مولاه الشيخ فكفّ عن الإملاء رفقاً به. كان الليل قد ضمَّ جناحيه على قرية ميدان حين جاءت خادمة بوشاح أحمر وصدرية بيضاء طويلة تخفي حتى قدميها وفي يدها طبقُ قَشٍّ عليه طاستان فيهما أرز مسلوق بالحليب رُشَّ عليه ذرور الدارصيني ويعلوهما بخارٌ أبيض وبجانبهما صراحية ماء وملعقتان من خشب التوت.

وضعت الخادمة الصبية ما في يدها أمام يونس والمترجم بهدوء وصمت، نظرت في عيني يونس قليلاً ثم انصرفت.

الفصل الثالث

القس لوسيانو

بدأ صباح اليوم التالي كئيباً ماطراً بارداً. سبق المترجمُ عشيقٌ خادمَه يونس في الاستيقاظ فأشعل الموقد ثم وقف بجانب النافذة يشاهد الزَّخَّ ويستمع لنقر قطرات المطر الرتيب على أوراق شجيرتي الليمون والنارنج وشجرة الكينا الكبيرة وسط فناء الدار. لم يطل المقام بالمترجم حتى سمع جلبة الخادمات الأربع تبعها وقع قدمي يونس يتقدم إلى حجرته وبيده طبق يعلوه وعاء مملوء بالتمر المقلي بالبيض وكأسان من الحليب الساخن.

سُرَّ المترجم فتلقّف الطبق من يد خادمه وهو يقول:

– تمر مقلي بالبيض! يا لفرحتي! إنني لم أذق مثل هذا التمر منذ زمن طويل. كانت أمي رحمها الله تعدّه لنا في السحور أيام رمضان.

– أنا اقترحت على الطاهية أن تطهوه يا مولاي. كنا نتناوله كلَّ صباح.

– صحيح. لقد حدثتني أنه كان لكم بستان نخيل في بغداد.

تناول الاثنان فطورهما ولما فرغا منه نهض يونس ليعيد الطبق إلى الخادمات فقال له عشيق:

- دعه هنا. سنبدأ التدوين الآن. لا خير في عمل تستطيع إنجازه الآن فتؤجله إلى آنٍ آخر.

- كما تشاء يا مولاي.

ردَّ يونس ثم جلب عدة الكتابة ففرشها أمامه واستعدّ لتدوين ما يمليه عشيق المترجم.

- أين وصلنا في الحكاية أمس يا يونس؟

- أنهيتَها بجملة وعيدٍ قالها لك عبد الله السروجي.

- آه. تذكرت. كنت أُملي عليك حكاية كراستي التي رسمت فيها الأهلّة والمآذن وكيف أنها وقعت في يد عبد الله السروجي. دوّن إذاً يا ولدي بقية القصة:

> كنت خلال حديث عبد الله إليَّ مشدوهاً مذهولاً مثل لصّ وقع بين يدي القاضي. وحين غادرني ملبياً نداء القس لوسيانو، تنفست الصعداء وبلعت ريقي بعد أن نشف حلقي طيلة الدقائق الماضية التي شعرت بها أحمالَ رصاصٍ تثقل على صدري. ولما انتبهت إلى أنه أخذ كراستي معه حثثت الخطا إلى حجرتي وصرت أبحث في كراساتي الأخرى عن صور الأهلّة والمآذن وكلمات الله أكبر التي ملأت بها أوراقاً كثيرة. نزعت كل تلك الأوراق ومزقتها إلى مزق صغيرة جداً وألقيتها في وعاء مملوء بالماء ثم توجهت إلى النافذة المطلّة

على الشارع المسمّى درب الموارنة.

كان صبية صغار يلعبون في الشارع الظليل حيث سقطت أوراق بعض الأشجار، وسمعتهم يتصايحون بفرح وبعضهم يتقافزون على الحبال، فيما يقلّد أطفال آخرون الفرسانَ على أحصنة خشبية، ويلاحق أحدهم زميله على طول الشارع حتى بئر تريفي المشهور، بينما يقفز أحدهم فوق رفيقه المنحني مستنداً بيديه على ظهره. رأيت كذلك بنات صغيرات يلعبن الكعابة، وهي تسمّى في تلك البلاد "الأستراجالي" حيث تأتي الفتيات بعظام مفاصل الخراف ثم يرمينها في الهواء ويلتقطنها بظاهر اليد. أما الفتيان فكانوا، مثل فتيان بلادنا، يضعونها في دائرة ثم يرمونها بكعب أكبر قليلاً وأثقل من الكعوب الموجودة داخل الدائرة ويفوز من يتمكّن من إخراج كعبه أولاً.

تمنّيت ساعتها لو أنني عدت طفلاً صغيراً فألعب في الميادين الفسيحة من القرية أو في أزقة حلب الضيقة، وكم كرهت أنني صرت يافعاً وأن أمنيةً غريبة لأبي دفعتني إلى هذه البلاد وهذه المتاهة التي بدت لي وقتها أنها بلا نهاية.

كنت غائصاً في تلك الخيالات حين سمعت صوت القس لوسيانو من خلفي ينادي بالعربية: "عشيق... عشيق. تعال يا عشيق".

كانت نبرته خشنة بعض الشيء أو هكذا شعرت بها في تلك اللحظة فنالني خوفٌ غير قليل وأدركت أن ساعةً من الاستجواب تنتظرني في قاعة دروس اللغة الإيطالية كما هي العادة مع أي تلميذ مقصّر من تلاميذ المدرسة. لم أكن بحاجة إلى ذكاءٍ كبير كي أدرك أن عبد الله السروجي قد وشى بي عند القس وربما أوغر صدره علي ودفع إليه كل الورقات التي رسمتُ عليها أهلّتي الحبيبة دليلاً على تبرّمي من هذه البلاد وصلبان هذه البلاد ونواقيس هذه البلاد ودينها.

خفتُ.

سرتُ بتثاقلٍ.

ارتفع صوت القسّ مرةً أخرى وهو يناديني بالنبرة ذاتها، فأسرعت حتى وصلت إلى حجرة درس اللغة الإيطالية. كان القس وحيداً هناك عند النافذة الواطئة المطلّة على الشارع الخلفي يرنو من خلالها إلى أولئك الصبية الذين شاهدتهم قبل قليل، ولمّا شعر بدخولي التفتَ فلم أرَ في وجهه الذي أنارته شمس الظهيرة الخريفية سوى بهجة هدَّأت قليلاً من روعي.

– اجلس هنا يا بني.

قال القسّ ذلك ثم جلس على كرسي بجانب النافذة وجلست أنا حيث أشار وبقيت ساكناً.

– أأنت رسمت هذه الأهلّة والمآذن؟

- نعم.

- هل اشتقت إلى بلادك كثيراً؟

- نعم.

- أتريد العودة؟

تلعثمتُ قليلاً. لم أكن أتوقع أن يسألني القس هذا السؤال المحرج. إن أصعب الأسئلة ما كان جوابها نعم أو لا. وسؤال القس كان كذلك، فإما أن أقول له نعم أريد، أو أقول لا، لا أريد. لكنني آثرت الصمت جواباً علّمنيه صديقي المصري جرجس حين قال لي ذات مرة: "الصمت أبلغ جواب إن أعيتك الأسئلة". لكن القس لم يتركني ولم يكترث بصمتي الذي خلت أنه جوابٌ بليغ. في البداية، عندما رآني لا أجيب إلا بالصمت، صمت هو أيضاً لبرهة قصيرة ثم نهض ومشى حتى استند إلى حافة النافذة واستدار ناحيتي، فحجب بذلك ضوءاً كانت تجود به النافذة الجميلة على الأرض المبلطة بالرخام الأنيق، وقال:

- أنا أعرف يا بنيَّ أنك مسلم، وأعرف كذلك أن اسمك محمد عشيق وليس يوحنا الأنطاكي، وأعرف أن أخي بولس هو الذي جاء بك قبل أكثر من عام برفقة فتيان مسيحيين آخرين إلى هذه البلاد لتعلّم اللغتين الإيطالية واللاتينية على أصولهما. أنا أعلم أيضاً يا عشيق أن مجيئك إلى روما كان برغبة والدك التاجر رشدي

أفندي صديق أخي المبارك الراهب طيب الذكر بولس عبد النور. لكن عليك يا بني أن تعلم أن لا أحد يجبرك على البقاء هنا. ربما يعود أخي بولس هذا الشهر قادماً من الشرق وسأتباحث معه أمرك، وإن أردت العودة فسنرتّب أمورها منذ الآن.

شعرتُ بلهجة القس لوسيانو خاليةً من أية عاطفة. بل شعرت بها خاليةً أيضاً من تلك القسوة التي كانت تغلّف نبرة كلامه حين ناداني أول مرة وأنا واقفٌ في فناء المدرسة مذهولٌ من انكشاف أمري وانفضاح سري.

تابعت صمتي.

طال صمتي حتى تبرّم القس وقال بالإيطالية:

- قد يكون الصمت يا عشيق جواباً بليغاً حين تردّ به على سؤالِ شخصٍ أحمقٍ أو سفيه، أو حين يشتمك نذلٌ فلا تريد أن تُسَفَّ معه وتهبط إلى دركه، أما أن يكون الأمر خطيراً، كأمر حنينك إلى وطنك وبحث أمر عودتك، فلا بدّ من أن تتبادل الرأي والمشورة مع من يحدّثك لا أن تبقى كمن أخرسته الحيرة.

خجلتُ.

دُهشت حين رأيته يخاطبني وكأنه قرأ أفكاري.

لكنني سرعان ما استجمعت شجاعتي وخرقت صمتي وقلت بلهجة الواثق:

- سيدي القس، حاشاك من كلِّ كلامٍ سيئ. أما عن

صمتي فإن الحزن والحيرة يخرسانني مصداقاً لما أنهيتَ به الآن حديثك الطيب. ولكن بما أنك تعرف كل شيء فلا بدّ أن أصارحك بما يجيش به صدري. لقد اشتقت إلى بلادي. اشتقت إلى أبي وأمي. اشتقت إلى صوت الأذان وصلاة الجمعة في المسجد الصغير بقريتنا. اشتقت إلى كل شيء حتى إلى حجارة القرية وترابها وجدران بيوتها. أجل أيها القس المبجل لوسيانو، إنني أكره طنين النواقيس. لقد اشتقت إلى المآذن وهي تصدح بالتكبيرات وتدعو للصلاة. شهور مرّت دون أن أرى مئذنةً واحدة أو أسمع أذاناً. مَرَّ عيدان ولم أسمع تكبيراتهما. لقد أضجرتني هذه النواقيس وآذتني هذه الصلبان الكثيرة المبثوثة في كل زاوية وفوق كل جدار وعند كل مقبرة. أنا الشاة القاصية يا سيدي القس. أنا المسلم الوحيد في هذه المدينة الكبيرة بل ربما في كل هذه البلاد. تحاصرني الصلبان كأسنّة الرماح. لقد اشتقت إلى بلادي وأشعر أنني شجرةٌ معلّقة في الهواء تنظر إلى جذورها وتتمنّى أن تلتصق بها من جديد. لكن هذا الشوق، أيها القس المحترم، لا يعني أنني أريد قطع دراستي والعودة إلى بلادي مع أول سفينة تغادر الميناء. لا بدّ أن أحقق غاية أبي، فأنا مكلّف حسب ديننا بألا أعقَّه بل من الفرض أن أسعى في إرضائه. سأبقى هنا حتى تكتمل دراستي ثم أعود وأتخلّص من هذه الغربة.

حطَّ عصفورٌ صغير على حافة النافذة من جهة الشارع ثم ما لبث أن طار من جديد حين قُرع ناقوس كنيسةٍ قريبة. ردّ عليَّ القس ساخراً وهو يتابع الطائر المذعور ويشير بيده إلى جهة الرنين:

– وتتخلّص من سماع رنين النواقيس ومن رؤية الصلبان.

باغتني القس.

باغتتنا النواقيس.

بوغت الطائرُ وبوغتُّ.

مضى الطائر وبقيتُ.

على حافة النافذة من الخارج حطَّ شحرورٌ بلّلته قطرات المطر. كان يحمل بمنقاره البرتقالي دودةً لا تزال تتلوّى تحاول التخلّص من المنقار اللعين. أحجم المترجم عن الإملاء وصار يحدّق بحزن في ذلك الطائر الأسود الصغير الذي بدا أنه هو أيضاً يحدّق بفضول كبير في الحجرة يستطلع ما يدوّنه الفتى يونس من كلام مولاه ويسترق السمع إلى صريرٍ عجولٍ من القلم الأنيس الذي يبدّد وحشة ذلك اليوم الماطر الكئيب.

أشاح الشيخ بوجهه عن جهة النافذة ثم نظر بإشفاق إلى يونس وقال له:

– أراك تستعجل التدوين يا بني. أتشعر بالجوع؟

ردّ يونس وقد أجفله السؤال وأخجله:

– كلا يا مولاي. لست جائعاً. وما استعجالي إلا رغبة مني في استباق ما جرى لك في روما.

أراد الشيخ أن يمازح يونس ويضفي قليلاً من المرح على حديثهما فقال:

- إذاً سآخذ قيلولتي أغفو قليلاً، ولتكتب أنت عني بقية ما جرى لي مع القس لوسيانو.

ضحك يونس.

طار الشحرور ومعه رزقه فتناثرت من خفق جناحيه قطرات ماء لمعت وراءه في ضوء النهار الخافت.

ضحك الشيخ.

قال ليونس:

- كنت في ذلك اليوم بين يدي القسّ مثل تلك الدودة في منقار ذلك الطائر المذعور.

ثم عاد إلى الجد فقال:

- سنكمل الحكاية يا يونس. سنكملها ثم نتناول غداءنا وآخذ قيلولتي وتنصرف أنت لشؤونك. يمكنك ألاّ تأتي إلى التدوين إلا ساعة المغيب لنبدأ من جديد.

بدت علامات الرضى واضحةً على محيّا يونس البهي فغاص برأسه بين كتفيه كما يفعل كل مرة حين يسمع إطراءً أو كلاماً يسره، ثم تهيأ مرةً أخرى للكتابة بينما مدّ الشيخ رجليه في اتجاه الموقد الذي لاحت فيه نارٌ كَسلى أتعبها الرقص، ثم قال مملياً من جديد حكاية القس لوسيانو معلّم اللغة الإيطالية في المدرسة المارونية في روما:

لم يكن القس لوسيانو مثل أولئك القسيسين الذين عرفتهم خلال مقامي الطويل في روما. كان يختلف

عنهم كثيراً فلم أره في المدرسة يُقرّع أحداً لأنه غاب عن قداس الأحد أو أهمل الذهاب إلى الكنيسة مثلاً، بل كان كل حديثه عن اللغات واختلافها وتشاركها وما ينبغي لمن يريد تعلّمها أن يفعله. ولقد كان ضليعاً في اللغات العربية والعثمانية ولغات أوربا حتى إنه كان أحياناً يتفوه خلال أحاديثه بجمل لا يفهمها أحدٌ منا لكنه لا يلبث أن يستدرك ضاحكاً حين يرانا مدهوشين ويقول: "اعذروني فلقد تكلمت اللغة الفلانية عفواً". كانت اللغات تتزاحم على لسانه حتى قال جرجس المصري ذات أمسية حين انتهينا من درس الضمائر الإيطالية وكيف قارن القس بين الضمائر في لغات عديدة: "هو ذا برج بابل صار في فم هذا القسّ الظريف". وكان كثيراً ما يلتقي بنا في ساعات الاستراحة فيحدثنا بالإيطالية ثم بالعربية إن رآنا لا نفهم كلامه، ويشرح لنا ويترجم ما تكلّمه جملةً جملة وكلمةً كلمة. ولقد رأيت فيه عزاءً كبيراً بعد أن رحل الراهب الماروني بولس ولمحت فيه أوجه شبه تدنيه كثيراً من الراهب الغائب، فاطمأننت إليه ووثقت به.

لم يكن القس لوسيانو يعلّمنا اللغة الإيطالية فحسب، بل كان يرشدنا إلى طرائق الترجمة، منها وإليها، وسبل نجاح المترجمين الذين سمّاهم "الحُوذية"، ويردّد دائماً قوله المأثور "الترجمةُ خلقٌ جديدٌ" حتى صار شعاراً لنا

نحن فتيان اللغة في كل درس. وكثيراً ما سمعناه يقول إن الترجمة أشبه ما تكون بعربةٍ يجرّها جوادان هما اللغتان، المنقول عنها والمنقول إليها، ولا ينبغي لجواد أن يكون أسرع من رفيقه أو أبطأ منه وإلا فإن العربة لن تسير. ولذلك فإن على المترجم، أو الحوذي حسب وصفه الغريب، أن يمسك بلجام الجوادين فيسوسهما بلطف وروية حتى لا تنقلب العربة.

وكان هذا القسّ الفلورنسي، ذو اللحية الخفيفة والقبعة الصفراء الصغيرة على شعره الطويل دائماً، دائم الحديث عن جمال اللغة الإيطالية ويأتينا بحكم وأشعار جميلة يلقيها على مسامعنا فنجد لها وقعاً يأخذ بالألباب حتى جعلنا في النهاية نعشق هذه اللغة على غرابتها ونتسابق في حفظ أشعارها وجملها العذبة.

كما أننا كثيراً ما ذهبنا معه، كلما راق الجو، إلى الحدائق القريبة من نهر التيبر فيرينا الأشجار والأزهار والطيور ويسميها لنا ثم يطلب منا أن نعيد تلاوة أسمائها حتى حفظناها. كان هذا دأبه في تعليم الإيطالية التي قال عنها ذات درس: "الإيطالية ليست بالحفظ، وعليكم أيها الفتيان أن تروا كل شيء تريدون أن تتعلّموا اسمه لأن البصر يعين الذهن على تذكّر ما نطقه اللسان وسمعته الآذان".

صمت عشيق بعد أن أملى آخر جملة وصار يحدّق في أنامل الفتى يونس وهي تُسطِّر كلماته الأخيرة على الورق بحرصٍ شديد، ولمّا انتهى الفتى من التدوين قال له مبتسماً:

– والآن يا يونس، ألا تشعر بقليلٍ من الجوع؟

– كلا يا مولاي بل أشعر بجوع لمعرفة ما قاله لك القس لوسيانو في ظهيرة ذلك اليوم الخريفي.

ضحك الشيخ ثم ضمّ قدميه وقال:

– أواااااه. لقد أطنبتُ في الكلام من جديد. الكلام غزالٌ يشرد إن تركته. أنؤجّل التدوين إلى ما بعد الغداء يا يونس؟.

– كما تشاء يا مولاي، لكنني أرى أن نكمل لأنك ستأخذ القيلولة، وقد قلت لي آنفاً أنه يمكنني المجيء واستئناف التدوين عند المساء.

– حسناً يا ولدي. سنتحدث عن القس خلال حكاياتنا القادمة كلما سنحت فرصةٌ لذلك. أما الآن فدعنا نكمل بقية ما جرى لي معه حين حقق معي بشأن الأهلّة والمآذن. دوّن يا يونس:

حين لمَّح القسّ إلى كراهيتي لطنين النواقيس ومنظر الصلبان ورأى التلبّد على وجهي، شعرتُ بنفسي محاصراً من كل جهة. كان لا بدّ لي من الاستسلام والبوح بكل ما لدي فقلت وأنا أرتجف:

– نعم. أكرهها. أكره هذه النواقيس وهذه الصلبان.

لم أجرؤ، وأنا أبوح بكل ما لدي، على النظر في عينَي القسّ الذي بقي هادئاً خلال حديثي لكنه ما إن انتهيت حتى نهض من جديد ومشى صوب النافذة

ونظر من خلالها إلى أعلى حيث كان سربٌ من الحمام أفزعته النواقيس بقرعها يحوم في تلك الأجواء ثم يطير شمالاً صوب هضبة كويريناليس.

بعد أن غابت الحمامات عن الأنظار عاد القسّ ليجلس بمواجهتي. رأيت لأول مرة الصرامة في وجهه والتبرّم في عينيه وغابت عن ملامحه تلك الطيبة التي كانت تدع كل من يراه يركن إليه ويرتاح لمجالسته.

قال لي بلهجة خشنة:

- أكرّر وأعيد، إن كنت متبرّماً إلى هذه الدرجة مما تراه من صلبان وكنائس وما تسمعه من قرع نواقيس وأجراس فما عليك إلا أن تيمّم وجهك شطر بلادك. سيأتي أخي بولس قريباً كما قلت، وسنتباحث أمرك لتعود. لكن عليك أن تسمعني أيها الفتى الأنطاكي المسلم محمد عشيق. إن الكراهية دينٌ لا يجتمع بدينٍ أنزله الله، وهي مذهب من لم يفهم حقيقة الرب وغايته من وجود الإنسان. ألا يقول القرآن ﴿... وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾؟ لتعارفوا يا فتى، لتعارفوا. هذه هي إذاً غاية التنوع ومرام الربّ جلّ وعلاّ من الاختلاف بين البشر. أتعرف أن عبد الله السروجي يقف في الجهة المقابلة لكنه مثلك ينحو منحى الكراهية! إنه لا يُكِنُّ إلاّ الكره لدين محمد وقرآنه وأهلّة مساجد المسلمين. أتعرف يا محمد عشيق أنه لو تُرِكَ الأمر لكما أنت وعبد

الله لنشبت حرب الآن في هذه المدرسة! أتعرف أنه لو ترك الأمر لكما لتذابحتما ونهش أحدكما لحم أخيه! لا دينك يا عشيق يأمر بكره الناقوس، ولا دين عبد الله يأمر بكره المآذن. المئذنة تدعو إلى الله والناقوس كذلك. وإن دققت في الأمر لأدركت أن الدعوة إلى الله، الذي هو المحبة، لا يمكن أن تكون بلغة واحدة ولا بطريقة محددة. الله محبة ولا يمكن للكراهية أن تصبح رسولاً المحبة. الله سلام ولا يمكن للدم أن يحمل رسالة السلام. إن عبد الله السروجي، يا عشيق، يسعى في إيذائك وقد حمل إليَّ ورقاتك التي ترسم عليها صور الأهلّة والمآذن يعتبرها أدلةً على هرطقتك وكرهك لهذه النواقيس. هو يعتبر حنينك إلى بلادك المسلمة كفراً بهذه البلاد المسيحية. واشكر ربك أنه سيغادر غداً إلى بلاده بعد أن أنهى دراسته. إنه ليس شريراً لكنه جاهل يعتبر كل دين عدا دينه ضلالةً وكل عقيدة سوى عقيدته كفراً بواحاً. نعم إنه جاهل، والجهل يا ولدي أُسُّ الشرّ ومنبع الكراهية.

صمت الشيخ مرةً أخرى ونظر في عينَي يونس الجميلتين اللتين عكستا ضوءَ النهار وكآبةَ ذلك الضوء، فتوقف عن التدوين وقال:

- أتعرف يا يونس أنني شعرت حينذاك أن من يكلمني ليس القس الإيطالي لوسيانو بل هو الراهب الماروني بولس أو الدرويش المسلم سراج الذي كان ينتقل من قرية إلى قرية يبشّر بالحب ديناً يشيع بين الناس؟ لا أدري لماذا تخيّلت أن رجلاً صالحاً يظهر لي في كل مرة

بهيئة مختلفة ويعلّمني ألاّ أكره. نعم فألاّ تكره أحداً من العالمين مرتبةٌ لا تبلغها إلا بعد رياضة وجهد عظيمين يا ولدي.

- وهل بلغتها يا مولاي؟

- الحمد لله. بتُّ لا أكره إلاّ من يظلم الناس ويسفك دماءهم بغير حق ولا أنظر إلى دينه. أتعرف الشيخ الأكبر محي الدين؟

- لا يا مولاي. من هو؟

- هو محي الدين بن عربي أحد أساطين المحبة وركن من أركان الحقيقة. وليتني استطعت نقل بعض كلامه إلى لغة الإيطاليين حتى يعرفوه. سأعلّمك الإيطالية يا يونس. ستبقى هنا إلى أن تتعلم الإيطالية.

لم يجب يونس.

صمت واكتفى بأن ألقى نظرةً على المترجم فرأى البِشْرَ طافحاً سابغاً على وجهه ولمح في عينيه رضىً وبهجةً غامرة لم يعهد لهما مثيلاً مذ بدأ يدوّن حكاياته قبل عشرة أيام.

كان الموقد قد غفا وأحجمت نيرانه عن ترجمة الحطب إلى دفء يسري في أوصال الحجرة الصغيرة، وانتبه الفتى يونس لذلك فكسر صمته القصير وقال بهدوء:

- أفلا آتي ببعض الحطب يا مولاي؟ لقد غفت الجمرات.

- بلى بلى. لا يمكن أن تكتفي عظامي الهرمة بحرارة الحكايات وحدها.

قالها الشيخ مبتسماً. فخرج يونس وغاب لبعض الوقت ثم عاد حاملاً حزمةً من الحطب وألقى بعضاً منها في الموقد فاستيقظت النار

وصارت ترقص من جديد فيما عاد يونس إلى مكانه لتدوين الحكاية.

- لم يبق سوى القليل من الحكاية يا ولدي. اكتب:

قبل أن ينتهي القس لوسيانو من حديثه عرض علي أن نذهب إلى سفح تلة فيميناليس فلم أمانع لأنني وجدت في حديثه عذوبةً ذكّرتني بعذوبة حديث أبي وصديقه الراهب الماروني بولس. كانت الشمس الخريفية قد ملأت الأرجاء بدفءٍ لطيف فيما تناثرت بعض الغيوم البيضاء العالية في النصف الغربي من صفحة السماء.

في الطريق إلى التلة أكمل القس حديثه عن الأديان. حدثني كيف أنها تلتقي في محبة الله ولا يفرقها سوى تأويلات الإنسان. قال لي بهدوء:

- يا عشيق، كم من قرية كانت آمنة مطمئنة لا تعرف إحَن المذاهب ولا عداواتِ الملل ولا ضغائنَ النِّحَل ولا حزازات الطوائف حتى جاء بعض من يدّعون أنهم نواب الرب وسدنة حقيقته والمبشّرون بكلمته فضربوا هذا بذاك وأشعلوا نيران الفتنة بين الجار والجار. ملأوا القلوب بالضغينة بعد أن كانت قلوباً بسيطة لا تعرف غير الود. والقلوب يا عشيق أوعية فانظر بمَ تملأ وعاءك. وإن وعاءً يملأه العسلُ يمكن أن يمتلئ بالسمّ أيضاً. والأديان، يا عشيق، آجام فيها شجر مثمر وشوك، وهي كذلك صحارى فيها واحات ومفازات، فاختر منها ما تشاء بفطرتك وما يوافق إنسيتك واطرح ما تبقّى مما

قد يتفق مع هوى النفس وشرور الطباع. إن في الأديان كلها بذور نبات يختلف في الطعم والألوان، فانظر ما يوافق تربة قلبك فانثره فيها.

بقينا ساعةً من الزمان ونحن نمشي ثم عدنا أدراجنا وما كلَّ القس ولا ملَّ من الحديث عن الخير والشر ومقاصد الأديان وغاية الرب من اختلافها. كنت أناقشه بين الفينة والأخرى وأطرح عليه أسئلة كانت تقلقني وأعترضُ على بعض كلامه، وهو يردّ علي بلطف حتى بلغنا شارع الموارنة ودخلنا المدرسة.

في تلك الليلة لم أستطع النوم.

أرقتُ.

بقيت أفكّر في كل كلمة نطقها القس خلال حديثه الطويل معي. انتبه رفيقي الفتى شمعون النصيبيني لحالي، وكنا ننام في غرفةٍ واحدة، فأشعل السراج وسألني:

– ما بك يا عشيق. لماذا لا تنام؟

– وأنت ما بك؟

– أقلقني قلقك. رأيتك تتقلّب في فراشك كأنك جديٌ في سفُّود شِواء.

ضحكت. ثم قلت له ممازحاً:

– إن من يصاحب المصري جرجس كمن يجالس حامل المسك، لا بدّ أن تفوح منه رائحة الدعابة.

ضحك شمعون أيضاً.

حكيت لشمعون كل قصتي فصمت برهةً ثم دنا من سريري وقال بهمس:

- لو بقي عبد الله هنا لسعى في ترحيلك من روما، لكن الله تلطّف بك وشملتك بركة القديسين. ومع ذلك احذر سابا أيضاً. كثيراً ما رأيته يوشوش في أذن السروجي، وإني لا أستبعد أن يكون هو من سرق ورقاتك وسلّمها لعبد الله.

- سابا؟ قلت مدهوشاً.

أجاب شمعون:

- أجل. لقد لاحظت عليه في الفترة الأخيرة ما يريبني من أمره. كان عبد الله يختلي به كثيراً. عليك بالحذر منه وكفى.

أفضى شمعون إلي بما يعلمه ثم نام هانئاً.

زدت أرقاً على أرق.

رحل عبد الله السروجي ولم ألتق به ثانية. ربما نسي أن يلتقيني مساءً كما هدّدني، أو ربما تحاشاني وشاء ألاّ يلتقي بي. لا أدري، لكنني شعرت براحة عميقة بعد رحيله. شعرت بالطمأنينة لمّا عرفت أنه لن يعود ولم يعد بإمكانه أن يفسد علي إقامتي في روما.

همٌّ وانزاحَ.

بقي القس لوسيانو يعلّمنا اللغة الإيطالية على أحسن

ما يكون حتى غاب هو أيضاً فجأةً بعد عدة شهور. سألنا عنه من جاء بعده فقال إنه ذهب في مهمة كنسية إلى بلاد أفريقيا. لكننا اكتشفنا فيما بعد أن ذلك لم يكن صحيحاً. لقد صدر بحقّ القس لوسيانو حرمانٌ كنسي من البابا نفسه. حكم عليه البابا بالحرمان من الكنيسة ومن الوعظ والدرس بسبب ما سمّي هرطقةً وتعدياً على مقام البابوية في روما. كان القسّ، إلى جانب تعليمنا الإيطالية، يلقي مواعظه كل يوم أحد في كنيسة صغيرة قريبة من هضبة البلاتينوس، وكان في عظاته ينفي الواسطة بين الله والعبد حتى قال في إحدى مواعظه إن البابا لا لزوم له ويمكن للعبد المسيحي أن يصل إلى ربه متى شاء مباشرةً، وقال إن الاعتراف شيءٌ باطل إن كان أمام الكاهن، وأن فضل الإنسان ليس بدينه أو لونه وعرقه.

ضجّت كنيسة روما بما نطق به القس لوسيانو في تلك العظة وصار حديثه على كل لسان، حتى اجتمع الأساقفة وناقشوه أربعة أيام بلياليها، ولمّا لم يجدوا سبيلاً لإقناعه بالعدول عن رأيه والتوبة أصدر البابا حكماً بحرمانه الكنسي. جرّدوا القس من ثيابه الكهنوتية ونفوه إلى خارج روما، لكنه بقي يلقي مواعظه على الناس في القرى والطرقات والأسواق وعلى أبواب الكنائس أيام الآحاد وكلما سنحت له الفرصة ورأى جمهرةً من الناس.

وبعد بضعة أشهر من غيابه نقل لنا كاهن شاب يدعى سيمون الجنوي أنه مسجون في كاستيل غاندولفو وهي قلعة تبعد خمسة فراسخ جنوب شرقي روما وتطلّ على بحيرة جميلة تسمّى آلبانو. حزنت لغيابه كثيراً. ثم حزنت أكثر حين سمعت من ذلك الكاهن نفسه أنه عاد إلى فلورنسا مجنوناً يتسكّع في شوارعها ويلاحقه الصبيان.

توقف المترجم عن الإملاء وقال بصوتٍ واهن:

– أما أنا فقد تعبت يا يونس. سنرجئ بقية الحكاية إلى المساء.

– كما تشاء يا سيدي.

من النافذة، لاحت شجرة الكينا الكبيرة وسط الدار. كانت ريح شمالية تهزّها بعنف. في السماء التي خلت من الغيوم ظهر سربٌ من الزرازير يطير صوب الجنوب. نظر عشيق بحزن إلى شجرة الكينا وأصغى بصمت إلى صفير الريح.

نهض يونس وضمّ عدة التدوين في صمت وحزن يشبهان صمتَ وحزنَ المترجم ثم خرج ليحضر الغداء.

***

كان الليل مشغولاً برداء الكون يطرّزه بالنجوم حين قدم الفتى يونس إلى حجرة المترجم بعد العشاء ليدوّن ما تبقّى من حكاية القس لوسيانو، فرآه غارقاً في قراءة كتاب ساهياً عمّا حوله حتى إنه لم يشعر بجلبة دخول يونس ولا جلبه الأقلام والقراطيس وجلوسه ينتظر أمر التدوين.

– أهذا أنت يا يونس؟ لم أشعر بك.

قال عشيق بعد هنيهة ثم أطبق دفتَيّ الكتاب وأردف بوهنٍ ملحوظ:
- سنكمل الحكاية الآن بلا شك. لقد أطنبنا فيها.
- وأحرقني الفضول لمعرفة ما آل إليه أمر القسّ المسكين.
ضحك عشيق.
أخذ يونس ورقةً جديدة وبسطها أمامه ثم غمس القلم في الدواة ونفضه مرتين كما كان يفعل في كل مرة. قال عشيق:
- أعرف أن الفضول ينهشك يا ولدي. ستنتهي الحكاية هذه الليلة. أعدك بذلك وإلا فلن تنام. أعرف ما تفعله الحكايات بالمرء حين لا تكتمل. دوّن إذاً يا يونس:

أخبرنا الكاهن سيمون الجنوي أيضاً أن القس لوسيانو نال في سجنه بالقلعة صنوف العذاب لكنه بقي يعيد ما كان يعتقده بلا خوف أو وجل. وقد روى لنا الكاهن كيف أن الزبانية كانوا يأخذونه إلى شاطئ بحيرة آلبانو ويضعونه في كرسيٍّ من معدن ثم يُغطّسونه في الماء ويسألونه: "أما زلت تنكر ضرورة وجود الأحبار العظام رؤساء الكنيسة من البابوات وأن المرء ليس بدينه الذي ينتمي إليه؟"، وكان يجيبهم حين يخرج من الماء نصف مختنق أنّ دين المرء هو أعماله وليس انتماؤه لهذا المذهب أو ذاك، وأنّ البابا بشرٌ مثلنا بل قد ينزل درجات أقلّ بكثير ممّا عليه إنسان بسيط يعبد ربه ولا يثير حروباً تُسفك فيها دماء خرفان الرب. وكان يجادلهم حتى وهو مبلل بمياه البحيرة المتجمّدة ويقارعهم بحججه الدامغة ومنطقه

السليم حتى أشرف على الهلاك أكثر من مرة.

ولقد بقي على هذه الحال يتلقّى بصبرٍ عجيب ألوانَ التعذيب إلى أن فقد عقله أخيراً وصار يهذي ويتكلّم بكلام لا يجمعه جامع، فرأى المشرفون على تعذيبه واستتابته أن يعيدوه إلى بلده فأعادوه حيث عُرف هناك باسم لوسيفر المجنون وصار أضحوكة الصبيان يلاحقونه في الأزقة ويؤذونه.

بقي يونس ينتظر بقية الحكاية.

قال الشيخ مبتسماً:

- لقد انتهت يا يونس. الحكاية انتهت. بقي القسّ على تلك الحال حتى وافته المنية في ليلة باردة من ليالي فلورنسة الكئيبة. مات على باب كنيسة وهو يشير إلى قلبه ويصيح: "الرب هاهنا. الرب هاهنا وليس بين جدران هذا البناء". انتهت القصة يا يونس وكنت قد أرجأتُ هذه البقية القصيرة إلى المساء لا لشيء إلا لأمتحن صبرك وفضولك. لقد نجحتَ يا ولدي.

سُرَّ يونس بهذا الإطراء.

ضمّ عدة التدوين ووضع كل شيء في مكانه.

كفَّ الموقد أيضاً عن تدوين الدفء، ضمَّ نوره وناره وغفا.

خرج يونس وهو يتمنّى ليلةً طيبة لمولاه.

غفا مولاه.

الفصل الرابع

ضوضاء الحنين

- لا أمان لشهر شباط.

هكذا قال المترجم عشيق صباحاً حين نظر من النافذة إلى الغيوم وهي تنسج بأنامل من مطر وشاحاً للنهار.

- شباط ما عليه رباط.

ردّ يونس بلكنة أهل العراق فضحك عشيق ثم جلس على الكرسي وهو يضمّ على جسده عباءة الفرو مستقبلاً الموقد الذي اشتعلت فيه النيران وصارت ترقص بمجون يليق بذلك الصباح الصاخب.

كان الاثنان قد فرغا من الفطور وتفرّغا لنسج الحكاية من جديد، بينما انشغلت السماء بإفشاء سرّ الغيوم وسرد حكاياتها المائية للأرض.

قال الشيخ حزيناً:

- فلنبدأ يا بني. صوت المطر يناسب ما سأمليه عليك الآن.

- فلنبدأ يا سيدي.

ردّ يونس وهو ينفض الحبر عن رأس القلم.

اتكأ عشيق على وسادةٍ بيضاء مطرّزة بنقوشٍ لطيفة من الحرير الكسرواني، ثم قال بنبرةٍ لا تزال حزينة:

– سأحدثك اليوم عن آفات الغربة وما يعتري المرء فيها من حنين مفاجئ بعد ظنه أنه ألف البلاد الجديدة. إن للحنين طنيناً يسمعه المرء بقلبه ويأتي على غير ميعاد. دوّن يا بني:

معلومٌ أنّ من يلج كهفاً مظلماً لا يتبيّن أي شيء للوهلة الأولى. إنه لا يرى غير ظلام دامس فيشعر أنه أعمى فيتسمّر في مكانه لا يعرف إلَى أين يتجه. ثم، بعد أن تمضي فترة من الوقت، تعلن الأشياء عن حضورها بما يتيحه قليل من نور الأبصار، ورويداً رويداً يبدأ المرء بالتعرف إلى حدود الكهف، جدرانه، عمقه، ارتفاع سقفه، وكل ما فيه حتى يتعود عليه ويألفه ويذهب عنه الوجلُ والتهيب.

وهذا ما حدث لي بعد أن مضى ما يقرب من عامين على قدومي إلى بلاد الصلبان. لقد صرت أتعرف إلى روما وحاراتها وأزقتها الضيقة الظليلة وهضابها ونهرها الكبير وسورها المنيع وبواباتها الضخمة وكنائسها الجميلة وأسواقها العامرة ومبانيها الفخمة وحدائقها الغنّاء وناسها ولغتها حتى ألفتها وزالت الوحشة عن قلبي نهائياً.

وإن المدن الكبيرة تسحر المرء فتراه يأنفها في

البداية ويقلقه الشوق إلى موطنه لأنه يجهل سبلها ولا يعرف لغة قاطنيها ويصعب عليه إقامة علائق مع ناسها. والإنسان بطبعه يتهيّب ما يجهله ولا يأتلف مع الجديد لكنه بعد ذلك ينجذب إلى مغناطيس الحياة وفتنتها فينسى ما كان فيه من شوق إلى أهله وحنين إلى بلاده. تتفتح عيناه على ما كان يراه فيما مضى قبحاً فيراه جمالاً يستأنس به بعد طول استيحاش وتنقلب الكراهة ودّاً فيعمر قلبه به. ولقد زال كرهي للنواقيس وقرعها والكنائس وصلبانها ليس فقط بفضل القس لوسيانو وحججه المقنعة في تساوي الأديان وأنها، حسب وصفه، أنهارٌ تخرج من ينبوع المحبة ولا ينبغي لها إلا أن تصب في بحر المحبة، بل حدث ذلك أيضاً بسبب أُلفتي للمكان وكل ما في المكان من أشياء وبشر وحجر ونباتات حتى أحسست أن الصلبانَ لا بدّ منها لإضفاء الجمال على تلك المباني والكنائس الفخمة المهيبة. بل لقد ألفتْ نفسي حتى رنين النواقيس واستطابت قرعها فصرت أُشَنِّفُ الأذن حين يطنُّ أحدها فأسمع فيه ألحاناً عذبة تبهج روحي الحائرة ويردّد خيالي صداها بعد أن تهدأ النواقيس.

لقد قالت الصوفية إنه إذا دام البلاء بالعبد ألفه، أي أن دوام الحال يجعل المرء يتعوّد عليه ويصبر على أذاه وتقوى لديه القدرة على تحمّله. فكيف إذا دام الجمال

بالمرء؟ لقد ألفت روحي صوت النواقيس وجمال الصلبان.

ولم تكن مشاغل الدراسة ومباهج الحياة الكثيرة لتترك لي فرصةً كي أفكّر بأهلي ولا لكي أفكّر بالفتاة اليهودية إستر التي شغفتني حباً قبل رحيلي إلى روما وسافرت دون أن أودّعها. بل لقد ألهتني تلك المشاغل الكثيرة والمباهج الوفيرة حتى عن الحنين إلى قريتي وملاعب طفولتي. صحيح أن نوبات من الحزن والحنين كانت تنتابني من آن لآن حين أختلي بنفسي أو أحلم ذات ليلة بقريتي وساحلها اللطيف وعائلتي وتلك الفتاة السمراء، ولكن سرعان ما كانت تزول مشاعر الحزن حين أضطر لمذاكرة دروسي في اللاتينية والإيطالية ومطالعة الكتب التي كانت مكتبة المدرسة تعجّ بها. وكذلك كنت أنسى همومي حين أخرج إلى الساحات الفسيحة لأرى تلك المباني الشاهقة والقصور الرائعة والحدائق الغنّاء وضفاف نهر التيبر الجميلة الخلاّبة المحفوفة بالأشجار.

أما علائقي بزملائي من الفتيان الموارنة القادمين من شتى أصقاع البلاد العثمانية إلى المدرسة فقد أضحت أكثر ودّاً بعد أن كنت أتحاشى الكثيرين منهم وآنف من مجالستهم. حتى إن سابا الزجّال، الذي خوّفني

منه شمعون النصيبيني بعد رحيل عبد الله السروجي، تحوّل إلى أخلص الأصدقاء وصرنا نتذاكر دروس اللغتين اللاتينية والإيطالية سويةً ونحن نتمشى تحت أشجار الصنوبر في الحدائق والغابات القريبة. لقد صرنا صديقين تجمعنا مودةٌ خالصة بعد أن اعتذر مني وحلف أن عبد الله السروجي أوغر صدره عليّ ووسوس له بأنني ما جئت إلى روما إلا لأتجسّس عليه وعلى رفاقه ثم أعود إلى البلاد العثمانية فأفشي أسرارهم وأحكي عن حركات وسكنات القساوسة والرهبان الذي يأتون إلى روما. أما جرجس فقد اعترته كآبةٌ امتدت شهوراً طويلة بسبب ما سمّاها هو هرطقةً وتجديفاً على الرب من لدن معلّمي المدرسة المارونية وكنائس روما، وحاول عدة مرات أن يعود إلى بلاده لكن أولي الأمر في المدرسة لم يسمحوا له بذلك. كان جرجس الأرثوذكسي يكنّ كراهيةً لمذهب الكثلكة لم يستطع إخفاءها مما جعله، بالرغم من روح الدعابة التي يتحلّى بها، مكروهاً لدى كثيرين من رفاقنا. وقد نصحته كثيراً أن يصبر كما أصبر أنا، ونصحه أيضاً القس لوسيانو حتى اقتنع على مضض. كما أنه صار لي أصدقاء من الطليان أنفسهم، وصرت أذهب بصحبتهم أيام الآحاد إلى ضفاف نهر التيبر نغتسل ونلهو ونستبق ونتنزه ساهين عمّا ينغصّ عيشنا الهني غير عابئين بشيء حتى جاء إلى روما قادماً

من بْشِرِّي في لبنان في بداية السنة الثالثة قسٌّ ماروني حلبي الأصل.

كانت دهشتي كبيرة جداً حين جاء شمعون النصيبيني راكضاً يقول بفرح:

– عشيق، هات البشارة.

– ما الأمر يا أخي شمعون؟

– عدني أن تعطيني بشارتي.

– أعدك والله. لكن قل بشراك أولاً.

– مكتوب من أبيك.

– ماذا؟ مكتوب من أبي؟ هل جاء الراهب بولس؟

– كلا. الراهب لم يأتِ بعد. بل هناك قسّ حلبي وصل إلى روما أمس. هو عند رئيس المدرسة الآن. أبوك أرسل معه مكتوباً.

تناهبتني الأفكار في تلك اللحظة. لو قالها جرجس المصري لما صدّقته وحسبته يمزح مزاحاً سمجاً ثقيلاً كعادته. لكنه شمعون التقي الورع الهادئ الخلوق. تخيلت أنني أحلم. بقيت متجمداً في مكاني وأنا أسترجع صدى قول: "مكتوب من أبيك" في ذهني. غبت عن العالم للحظات وأنا أنظر إلى شمعون بوجوم وذهول حتى أيقظني شمعون من دهشتي وقال:

– ما بك يا عشيق؟ لماذا تحدّق كالأخرس في وجهي؟

وقبل أن أتهيأ للإجابة سمعت صوت مارينو الفرّاش وهو يناديني:

– عشيق، أبونا رئيس المدرسة ينتظرك في حجرته. أسرع.

لم أجب شمعون بشيء. ذهبت وأنا أكاد أطير وينبض قلبي بعنف إلى أن وصلت إلى الباب فطرقته طرقاً خفيفاً حتى سمعت الرئيس يقول "سيا كومودي" وتعني بلغتهم "ادخل". دخلت ثم سلّمت بهدوء وظللت واقفاً مترقباً بلهفة وَشَتْ بها عيناي.

كان يجلس على كرسي وثير رجل له مهابة، انسدلت على صدره لحيةٌ كثّة والتفّ على رأسه ما يشبه العمامة السوداء، يرتدي سلسلةً ذهبية يتوسّطها صليبٌ ذهبي كبير وصل حتى زناره الأسود الملفوف بعنايةٍ فائقة على خصره، وعيناه تلمعان ببريقٍ جميل. توّجه رئيس المدرسة إلى الرجل المهيب وقال له:

– هذا هو عشيق الأنطاكي، ابن رشدي أفندي.

– أهلاً يا بني. أهلاً يا عشيق.

ردّ الرجل باسماً. أردف الرئيس قائلاً يخاطبني:

– وهذا هو سماحة القس المبارك جرمانوس فرحات الحلبي. يحمل لك أمانةً معه.

كدت أجهش بالبكاء حين سمعت القس الحلبي يحدّثني عن أبي وتجارة الورق ومدارس حلب.

دهشت حين ظهر لي أنه يعرف أبي منذ تلك الأيام. ولقد ازدادت دهشتي لمّا صار يحدثني بأمور ما كنت أعرفها عن أبي وتجارته التي بارت بسبب احتكار التاجر مارتين الإفرنجي للورق ومضاربته لأبي في السوق حتى أفلس وتركنا حلب وراءنا وبقية القصة التي أوردتُ بعض تفاصيلها في الكتاب الأول. وعندما انتهى القس من حديثه القصير أخرج من حقيبةٍ صغيرةٍ بنية اللون كانت على الأرض بجانبه رسالةً مختومةً ثم مدّها إلي وقال:

– شاءت إرادة القدير أن ألتقي أباك في أنطاكية وأنا أتوجّه إلى ميناء الإسكندرون. ولمّا عرف أنني متوجّه إلى روما كتب لك هذه الرسالة. لقد وصلته رسالتك التي بعثتها مع أخي المبارك بولس وسرَّ بها أيّما سرور. إن شئت أن تبعث له بالردّ فأنا سأبقى هنا لبعض الوقت ثم أرحل إلى إسبانيا ومنها أعود إلى أنطاكية فحلب وهذا سيستغرق شهوراً عديدة.

هززتُ برأسي موافقاً ثم أخذت الرسالة وشكرته وخرجت مسرعاً وتوجّهت إلى غرفتي.

كان شمعون لا يزال في الخارج ينتظرني، ولمّا رآني هتف:

– كما أخبرتك، مكتوب من أبيك، أليس كذلك؟

لم أرد عليه. دخلت غرفتي وفتحت رسالة أبي.

لم يكن في رسالة أبي سوى التحيات والأشواق وبعض النصائح بضرورة الصبر والتحمّل حتى تنتهي دراستي. كتب لي عن ازدهار تجارته من جديد وأنه اشترى بيتاً في أنطاكية وأنه لا يزور القرية إلا في الصيف. قال أبي في رسالته إن أمي تخاف عليّ من بنات النصارى وأنها تنذر النذور العظيمة لرجوعي سالماً. بحثت بين سطور رسالة أبي عن جملة ولو صغيرة عن صفّار القرية الأرمني إسحاق وابنته إستر التي عشقتها قبل سفري فلم أجد شيئاً.

بالرغم من ذلك، بالرغم من خلوّ تلك الرسالة من أخبار أول فتاة تيّمتني حباً، فقد أثارت حنيني وهزت أعماقي وجعلتني أبقى ساعةً كاملة أضع ذراعي تحت رأسي محدقاً تارةً في السقف وتارةً في الرسالة المفتوحة بجانبي وأنا أتمدّد على سريري وحيداً في الغرفة.

كان للحنين الذي أثارته تلك الرسالة المختصرة ضوضاء يشبه ضوضاء ربابنة سفينة فاجأها إعصار. كان للحنين الذي أيقظته تلك الرسالة من أبي طنين كطنين هاون من نحاس في يد صبية ساهية تدقّه على غير هدى. لم تعد الصور والأخيلة القديمة تغيب عن ناظري. عدت إلى القرية وصرت أسمع في خيالي جلبة إسحاق الصفّار الأرمني وقرقعة عجلات عربته وأواني النحاس إذ يرتطم بعضها ببعض في مؤخر

العربة حين يقدم إلى القرية أيام الجمعة ومعه ابنته بالتبنّي إستر اليهودية التي نسج الحب بيني وبينها بساطاً من لهفةٍ ولذّةٍ غائبة. مرّت أمام ناظري صور الموج الصاخب وصياح الصيادين على ضفاف نهر العاصي والسفن البعيدة وأهازيج الملاّحين والأشرعة التي تخفق في عرض البحر والشمس اللاهبة في الصيف. مرت آلاف الصور الأخرى حتى ظننت أن تلك الرسالة ما جاءت إلا لكي أستعيد حياتي وأرى تفاصيلها من جديد وأنا في تلك البلاد بعيدٌ آلاف الفراسخ عن قريتي.

لقد قضت تلك الرسالة وما أثارته من ضوضاء في خيالي على الهدوء الذي بدأت روحي تسير في دروبه، وكذلك فقد محت سطورَ تلك الألفة التي نمت بيني وبين تلك البلاد الغريبة وأهلها فشعرت بنفسي غريباً أو شعرت بتلك البلاد غريبةً عني من جديد. لقد كادت روما تنسيني وطني وأهلي لكن رسالة أبي أشعلتْ نار شوق خلته صار رماداً وقرعتْ ناقوسَ حنينٍ ظننت أن صدأ الزمن قد أخرسه إلى الأبد. انعصر قلبي من جديد وصرت أسأل عن سرّ هذا الامتحان الذي ألقاني الله تعالى في أتونه وأناجيه قائلاً: يا رب، إنك تعلم أنني لست أهلاً لامتحانك هذا. فأنا ما زلت صبياً طري العود تميل بي الريح كما تشاء. أنا زورقٌ صغير،

أشرعتي ممزقة ومجاديفي مكسورة، فأنقذني برحمتك من هذه العاصفة يا الله.

***

رحل القس جرمانوس فرحات متجهاً إلى إسبانيا بعد أشهر عديدة أمضاها يتنقل من كنيسة إلى كنيسة يلتقي بالمطارنة والأساقفة ويطّلع على مكتبات روما وما تضمّه من نفائس المخطوطات اللاتينية والعربية. وقبل أن يرحل بأسبوع زار المدرسة المارونية ليودّعنا نحن فتيان اللغة، فألقى علينا موعظةً قصيرة وصار يحدثنا عن فضل العربية وكيف أنها صارت جسراً عبرت عليه نفائس كتب الإغريق بسلام، وأن التراجمة السريان واليهود وغيرهم كانوا ربابنة سفينة أوصلت تلك النفائس إلى ضفة النجاة. ولقد كرّر نصائحه لنا بأن نجتهد في تعلّم الإيطالية واللاتينية لننقل فيما بعد، حين نعود إلى أوطاننا، ما تضمّه الكتب التي سنأخذها معنا إلى اللغة العربية فنحرّرها من سجون لغاتها الأصلية.

قال جرجس المصري لمّا سمع كلمة "السجون":

- نحن هنا في سجن يا أبانا القس، فكيف سنطلق سراح ما في الكتب؟ أيستطيع أسيرٌ أن يفكّ قيدَ أسير؟

ابتسم القس فتبعناه في الابتسام ثم رأيناه يقول وهو يجول بنظراته علينا كلنا:

- الكتب سجونٌ تقيم فيها الأفكار والعلوم، لا يحرّرها منها إلا المترجمون.

ثم سكت ليرى وقع كلمته علينا. كنا نفكّر في صورته البديعة هذه صامتين، لكن جرجس فاجأنا كعادته:

- والمفاتيح يا أبانا القس؟ أيّ حدادٍ سيصنعها لنا لنفتح بها زنازين الأفكار؟

- اللغات مفاتيح يا جرجس. اللغات مفاتيح تفتح أقفال اللغات الأخرى أيها الفتيان المباركون.

غير بعيدٍ منا مرّ معلّم اللغة اللاتينية، وهو كاهنٌ يسوعي من مدينة سيانا يسمى لورنزو، فأشار إليه القس جرمانوس وقال مبتسماً:

- والحدادون هذا وأمثاله.

انتهى القس من حديثه المشفوع ببلاغة ذكّرتنا ببلاغة الراهب بولس الذي طال شوقنا إليه، ثم طلب منا للمرة الأخيرة أن نهتم بدروسنا ونتقن اللغتين اللتين جئنا لتعلمهما، ثم دعا لنا بالتوفيق وباركنا ومضى. لم يكن قد ابتعد كثيراً حين لحقت به وحمّلته رسالةً جوابية إلى أبي كنت قد أمضيت الليلة الماضية في تدبيجها. وعدني القس أن يسلّمها له حين يصل إلى أنطاكية سالماً، ثم طلب إلي أن يختلي بي وبجرجس للحظات قليلة فنمشي في حديقة قريبة من بئر تريفي،

فأجبناه إلى ذلك، ولما صرنا قريبين من البئر قال لنا:

- إن أخي المبارك بولس عبد النور هو صاحب فكرة أن يأتي بفتيان غير كاثوليك أيضاً، وهو الذي أقنع المطارنة وأولي الأمر في المدرسة بذلك، ولولاه لما تمّ قبولك أو قبول جرجس هنا.

لا أدري لَمَ حدثنا القس جرمانوس بذلك، لكني شعرت أنني محظوظ لقدومي إلى روما ودراستي في المدرسة المارونية. أما جرجس فقال وسيماء الجدّ على وجهه:

- لسنا نوقاً جرباء يا سماحة القس. أصلاً لم أكن أريد أن آتي إلى بلاد الكاثوليك هذه لولا رئيس دير أبو فانا وخالي اللذان أقنعاني بالقدوم.

- لا أحد يقول ذلك يا جرجس. لا أحد يزعم أن المسلمين والأرثوذكس نوقٌ جرباء، لكن الطريق إلى الرب غير ما تسلكونه. أتمنى أن يهديكما الرب إلى سبيل الهدى.

صمتُّ وصمتَ جرجس. شعرت أنه عاجز لأول مرة عن الردّ وأن بداهته خانته. لكن حين عدنا إلى حجراتنا قال رفيقي المصري غاضباً:

- هؤلاء الهراطقة يظنون أن المسيح كاثوليكي. يريدون أن يحتكروه لأنفسهم فقط. أقسم بحياة العذراء لو جاء المسيح الآن لطردهم من ملكوته كما

طرد الصيارفةَ والتجارَ من الهيكل الذي جعلوه مغارةَ لصوص.

بعد أيام على رحيل القسّ الحلبي جرمانوس فرحات، الفرّيسي كما صار جرجس يسميه حين يحدثني عن اختلائه بنا ذلك اليوم، نسيت أمر الرسالة التي جاءتني كما نسيت أمر الرسالة التي أرسلتها لأبي. أما حنيني الذي ثارت زوابعه وعصفت بي رياحه بسبب كلمات أبي في مكتوبه فقد هدأت مع مرور الأيام ضوضاؤُه وفتر طنينه، فانصرفت من جديد لدروسي، وعادت روما تتودد إلي وتراودني عن نفسها بكل فتنتها المعهودة العصية على المقاومة.

توقّف المطر عن ترجمة ما في بطون الغيم من قصص وحكايات. سكتت المزاريب عن نشيجها المستمر منذ الصباح وانقشع الغيم فسطعت شمس جميلة ملأت الأجواء بالنور. نظر المترجم عشيق عبر النافذة فبهره فناء الدار الذي غسله المطر وازدحم بالضوء الأليف. أشرقت في عينيه شموس البهجة فتوقف عن الإملاء وقال:

– فلتتوقف غيمة الذاكرة أيضاً عن مطر السرد، وليكفَّ الحبر عن الهطول من يراعك الحاذق على هذه القراطيس. ما رأيك يا يونس؟

– الرأي رأيك يا مولاي.

– بوركت يا بني. فلتأخذ قسطاً من الراحة ريثما أصلّي الظهر وآخذ قيلولتي. سأطالع اليوم قليلاً في كتاب **مختصر اللاهوت** لتوما

الأكويني إلى المساء. يمكنك أن تأتي مع غروب الشمس. هيه؟ ماذا قلت؟

- حباً وكرامة.

- ولا تنسَ أن تأتي ببعض الحطب، فإن ليالي شباط باردة.

- هذا صحيح يا مولاي.

قال يونس وهو يضع إبريق الوضوء بجانب العتبة بعد أن ملأه ماءً فاتراً كان في وعاءٍ قرب الموقد ثم فرش سجادة الصلاة وخرج تاركاً المترجم متدثراً بعباءة الفرو متنقلاً ببصره بين نار الموقد وإبريق الوضوء مصغياً بصمت لعويل ريح الشمال وهي تكنس الغيوم من جديد.

ترجمة المحنة

مساءً، حين خطَّ الليل بريشته حروفاً مضيئة على صفحة السماء، اتّخذ الفتى الأرناؤوطي النبيه يونس مجلسه حيث اعتاد أن يدوّن حكايات المترجم عشيق متهيئاً لكتابة ما سيمليه مولاه بشغف. كانت نار الموقد قد اضطرمت كقلب عاشق فهيأت للحكاية ما تقتضيه الحكايات من دفء وضياء، واشتعلت سُرُجٌ ثلاث تعين نار الموقد في منح مزيدٍ من النور للحجرة تماماً كما يمنح الليل للحكاية مزيداً من المهابة.

– أحدثتك عن القس لورنزو يا يونس؟

رمى المترجم سؤاله كحطب في موقد دون أن يحيد ببصره عن النار المضطرمة، فأجاب يونس:

– لم تحدثني عنه يا مولاي. لكن اسمه مرَّ هذا الصباح حين أمليتَ عليَّ قصة مجيء القس الحلبي جرمانوس إلى روما وعرفت أن القس لورنزو اليسوعي كان يعلّمكم اللغة اللاتينية في المدرسة المارونية.

– بارك الله في ذاكرتك يا يونس. إنك لا تدوّن سيرتي فحسب بل تحفظها أيضاً. نعم إن القس كان يعلمنا اللاتينية. بل كان أكثر من ذلك.

– كيف يا مولاي؟

- ستعرف حين تنتهي من التدوين هذه الليلة يا ولدي.

تنحنح المترجم قليلاً ثم بدأ يعصر بيده اليمنى مفاصلَ أصابع يده اليسرى وقال:

- لا تنس أن تصنع لي غداً معجون الصندل الأحمر يا يونس. لقد أحضر الحوذي اليوم ماءَ عنب الثعلب من أنطاكية. هذا المعجون أكثر نفعاً، كما يقول الأطباء، لداء النقرس من معجون الرِّجْلة الذي صنعته لي قبل أيام.

- إن شئت صنعته الآن يا مولاي.

- لا يا يونس. لا أشعر بألم في مفاصلي هذه الليلة. لكننا سنصنع الآن سويةً من ذاكرتي وبخطك الجميل معجون الحكاية لنعالج به نقرس النسيان. دوّن يا يونس، دوّن يا ولدي:

> كان الراهب بولس عبد النور يرغب في أن يأتي كل عامين أو ثلاثة أعوام بفتيان مارونيين من بلاد الشام. وقد خطر على باله أن يأتي بفتيان آخرين من مللٍ ونحلٍ شتى فجاء بي وبجرجس المصري وكلانا لسنا على مذهب الكثلكة كما تقتضي أعراف المدرسة المارونية. لكنه، عام أتى بنا، استطاع بما أوتي من قوةٍ في المنطق وقدرةٍ في المحاججة أن يقنع أساقفة روما بنجاعة مسعاه فقبلوا بنا على مضض. كان الأمر كذلك لأن كل من يدخل تلك المدرسة لا بدّ وأن يتخرج منها ليدخل الكهنوت وينذر عمره لخدمة الكنيسة. لذلك فقد اجتمع قساوسة ورهبان المدرسة ورئيسها وأرسلوا له قبل أن يأتي مرةً أخرى

رسالةً وضعوا عليها خاتم البطريركية المارونية وأبلغوه فيها أنهم لن يقبلوا بغير الكاثوليك بعد الآن وأن قبولهم بنا، أنا محمد عشيق الدين المسلم العثماني وجرجس عبد المسيح القبطي الأرثوذكسي، كان فلتةً لن تتكرر.

أذعن الراهب للأمر، وحين جاء في السنة الرابعة بعد رحيلنا إلى روما قادماً من بلاد المشرق لم يكن معه سوى ثلاثة فتيان كلهم مارونيون من بلاد الشام.

توقّف يونس عن الكتابة، بعد أن رسم نقطةً في آخر سطر دوّنه، ونظر في عينَي المترجم مستغرباً. ابتسم عشيق وقال:

– أرى في عينيك دهشةً يا يونس. أتظن أنني استطردت؟

– حسبت أنه اختلط لديك الأمر يا مولاي. كنت تريد الحديث عن القس لورنزو اليسوعي لا الراهب بولس.

– لم أنسَ ذلك يا يونس. إن لافتتاحي الحكاية بقصة قدوم الراهب بولس صلةً بما سأمليه عليك الليلة. عهدتك صبوراً يا ولدي.

خجل يونس. طأطأ رأسه وحمل القلم من جديد دون أن يقول شيئاً.

تنهّد المترجم. خيّمت سحابةٌ من الحزن على وجهه وقال بأسىً بالغ:

– كان الراهب يحمل رسالةً من أبي.

سأل يونس:

– أأدون هذه الجملة يا مولاي؟

ابتسم الشيخ. لم يشأ أن يكلّمه بلهجة تدعه يخجل ثانيةً فقال بحنانٍ جاهد على أن يكون حقيقياً:

- نعم أيها الفتى النبيه دوِّنها. أنا أملي عليك الحكاية وكأنني أحدّثك أنت. من حقك أن تستفسر كلَّ ما شككت في الأمر. دوّن يا بني:

كان الراهب يحمل رسالةً من أبي. لم يسلّمني إياها مباشرةً. طلب مني أن أصحبه حتى ضفة التيبر المقابلة لجزيرة تيبيرينا. خرجنا عصراً. كان الجو قد راق كثيراً ومالت الشمس فامتدت ظلال الأشجار وامتلأت السماء بالحمام يحوم حول أبراج الكنائس وأسطح القرميد في البنايات السامقة. في البداية حدثني عن القس لوسيانو المسكين وما آلت إليه أموره، ولمستُ لديه حزناً على رفيقه وتحسّراً عليه ورغبةً في زيارته بفلورنسة، ثم ما لبث أن صار يتحدث عن الموت وكيف أنه نهاية الأحياء لبدء حياةٍ جديدة في جوار الرب. ومع أن حديثه كان مليئاً بالإشاراتِ والرموز والاستعارات والألفاظ الملغزة، فقد أدركتُ أن مكروهاً حدث لا محالة في فريتي.

- ليرحم الله أمك يا ولدي. لقد ارتاحت نفسها.

لم أستوعب هذا الكلام الذي تفوّه به الراهب بولس للوهلة الأولى. بقيت لحظاتٍ وأنا أحدّق في فمه الذي انسدل عليه شاربان غزاهما الشّيب. كان هو أيضاً يحدّق في عيني منتظراً أن أقول شيئاً. ولما أيقن أنه صدمني فأعياني الكلام سلّمني رسالةً مطوية بإتقان وقال:

- لقد كتب والدك هذه الرسالة لك. سنعود الآن إلى

المدرسة وستقرأها في حجرتك.

هبط الحزن كله على قلبي دفعةً واحدة. غصصت بريقي وانحبست الدموع في عيني. لم أبكِ، بل لم أشأ أن أبكي فأبدو ضعيفاً. لم أنبس بحرف واحد لأن كل كلام في حضرة الموت هراء.

وقبل أن تغرب الشمسُ سطعت نجمة المساء كبيرةً لامعةً فعدنا واجمين. مررنا بالبانثيون الذي كان مجرد رؤيتي له يبعث البهجة في قلبي، لكنني شعرت به وقتذاك جبلاً كئيباً ينتصب هناك ولا يثير إلا الشفقة. صار الراهب على طول طريق العودة يواسيني ويضرب لي الأمثال عن الحياة والموت وأنا صامت حزين حتى بلغنا بوابة المدرسة فدخلناها. استقبلني رفاقي وعانقوني جميعاً وكانوا على علم بالأمر. لقد أعلمهم الراهب بالخبر وطلب منهم أن يكتموه عني. مساءً، حين اجتمعنا في حجرة جرجس وسابا، قال جرجس مازحاً:

– ما رأيك يا عشيق أن يتزوج أبوك من أمي الأرملة؟ اكتب له أنك وجدت عروساً مصرية يتزوجها قبل أن تخطف امرأةٌ لا تعرفها قلبه الثاكل. سنصبح إخوةً يا عشيق. هيه! ماذا قلت؟

صمتُّ دون أن أردّ. لم تكن لدي أية رغبة في الكلام. لكن جرجس بما أوتي من براعة وذلاقة لسان لم يتركني بل قال من جديد وبنبرةٍ جادة هذه المرة:

- أليس دينكم يبيح الزواج بالكتابيات؟ صدقني سيدخل أبوك نعيماً مقيماً. صحيح أن أمي مسكينة لكنها تطبخ ألذ ملوخية في الدنيا.

لم أردّ عليه مرةً أخرى لكنني جاملته فزرعت بالإكراه ابتسامةً صغيرة على شفتي. أما رفاقي فلم يضحكوا كما كانوا يضحكون كعادتهم حين يسمعون كلام جرجس، احتراماً لحزني.

تلك الليلة اقترح جرجس أن يتبادل هو وشمعون النصيبيني مكانيهما لكي نتقاسم أنا وهو النوم في نفس الغرفة ومن أجل أن "ينسيني حليب أمي" بتعبيره الظريف، فتمّ الأمر كما اقترح.

تلك الليلة لم أستطع النوم. ظل جرجس يهذر بقصص مضحكة وحكايات طريفة إلى أن غلبه النوم. بقيت ساهراً أفكّر في أمي وسرعان ما شعرت بنداء خفيّ يشدّني إلى خزانتي الصغيرة التي كانت فيها حقيبةٌ من الحقائب السبع التي أرسلتها أمي المرحومة معي، فأخرجت منها تلك المرآة الجميلة المؤطّرة بخشب الأبنوس، وأشعلت السراج.

توقّف عشيق عن الإملاء وتنهّد قليلاً. نظر بحزن إلى يونس وقال له:

- إننا لا نعرف قيمة الأشياء إلا حين نفقد أصحابها يا يونس.

- أو حين نفقد الأشياء نفسها يا مولاي.

- بوركت يا يونس النبيه. أو حين نفقدها. يا لهذا الكلام الجميل!

أنت الحجر الذي رفضه البناؤون فصار حجر الزاوية يا يونس. أحمد ربي لأنه ساقك إلي في ذلك اليوم.

قال المترجم جملته الأخيرة وهو يصفّق طرباً لجملة يونس الذي لمع السرور بهذا الإطراء في عينيه. بقي مدةً يحدق في النار ويردّد "أو حين نفقدها" مرات عديدة حتى أشرقت عيناه بالحبور وقال مضمّناً جملة الفتى في كلامه:

إن المرء لا يعلم قيمة شيء إلا بعد فقدان صاحبه أو فقدان ذلك الشيء. وأنا لم آبه بتلك المرآة الصغيرة التي اكتشفت في السفينة حين جئنا إلى روما أن أمي وضعتها في حقيبة من حقائبها. لم أعرها أدنى اهتمام وتركتها بعد ذلك كما كانت إلى أن سمعت خبر موت أمي وشعرت أن شيئاً ما يناديني في حجرتي. كان ذلك النداء الذي جذبني إلى الخزانة نداءً من تلك القطعة الوحيدة التي استطاعت أن تعيدني سنوات إلى الوراء. أصبحت لتلك المرآة بعد سماعي خبر موت أمي قيمة كبرى لدي. لقد بقيت تلك المرآة الصافية مربّعة الشكل ملفوفةً بقطيفةٍ سوداء في قاع الحقيبة لم ألمسها مذ وطئت قدماي أرض روما حتى ماتت أمي. كانت المرآة تناديني من داخل الحقيبة ففتحتها بلهفة لصّ وأخرجت المرآة ثم حملتها في حضني بهدوء كمن يحمل رضيعاً نائماً ملفوفاً بقماط. بعد برهة قصيرة نزعت عنها القطيفة السوداء ثم حدقت فيها بلوعة. فاحت منها رائحة طيبة ذكّرتني بعطر أمي.

كادت تلك المرآة تكلّمني حتى تخيّلت أنني أسمع أنفاس أمي الطيبة منها. عادت بي الذاكرة إلى أعوام طفولتي فتخيلت أمي تخرج من الحمّام صباح كل يوم جمعة فتضع مرآتها على حافة النافذة القبلية وهي تدندن بلحن أغنية عذبة مستقبلةً ضوء النهار وتمشّط شعرها الطويل المبلل الذي تفوح منه رائحة الحنّاء اليمني وصابون الغار الحلبي وتلمع خصلاته في وهج الشمس. كانت بعد ذلك تضع على عينيها الكحل الأصفهاني الذي كان يأتينا من بلاد العجم وتتجمّل كعروس. كان اسمها سارة، وكانت نصيرية المذهب قبل أن تتزوج أبي الشركسي المسلم، ولكنني لم أسمع أبي ولا مرة واحدة يتحدث عن كونها نصيرية ولا سمعت حديثها عن كون أبي شركسياً مسلماً سوى مرة واحدة حين عيَّرت أمي صديقَ أبي الراهب بولس عبد النور بأنه نصراني. وقتها حدث سجال بينهما وغضب أبي غضباً شديداً سرعان ما هدأ أواره وانطفأت ناره فتراضيا ثم نسينا الأمر.

وقد روت لي أمي أنها أحبت أبي بعد أن رأته ذات مرة في سوق أنطاكية ثم تزوجته وصارت على دينه بالرغم من عدم رضى أهلها وهجرهم لها. حكت لي أمي أيضاً أن تلك المرآة كانت سبباً في زواجها من أبي إذ لولاها لما رأته ظهر ذلك اليوم الربيعي الخلاّب كما كانت تصفه دائماً. كانت أمي تتسوق في أنطاكية حين

رأت تلك المرآة الجميلة في حانوت كان يرتاده أبي أيضاً في تلك اللحظة.

"كنت أنظر إلى وجهي في المرآة حين رأيت شاباً فيها يغمز لي"، قالت أمي بخفر وهي تروي أول لقاء بينها وبين أبي، ثم أردفت: "أعجبني الشاب الجسور وأعجبتُه. تقدّم صوبي وأنا ما زلت أحمل المرآة حتى دنا مني كثيراً متظاهراً أنه يعاين التحف المعروضة ثم سألني بما يشبه الهمس عن اسمي وعن الحارة التي أسكنها ثم تم الأمر كما يحدث في القصص والحكايات".

حين تذكّرت كل هذه الأمور، وأنا أحدق على ضوء السراج الخافت في وجهي الحزين في مرآة أمي، شاهدت عيني مغرورقتين بالدمع فعرتني كآبةٌ عميقة ولفّني حزنٌ ثقيل، فلففت المرآة الجميلة مرةً أخرى بتلك القطيفة السوداء ووضعتها في الحقيبة، مثلما كانت حين لفّتها أمي، ثم بكيت كما لم أبكِ في حياتي كلها.

بعد شهرين سافر الراهب بولس إلى المشرق واعداً إيانا أن يعود بعد سنة ليعيدنا جميعاً إلى ديارنا بعد أن ننهي دراستنا. ازددت حزناً على حزن حين رافقناه إلى بوابة أوستينيس وودّعناه هناك. حين صعد العربة التي كانت تنتظره ورأى أنني، بخلاف رفاقي، لم أعطه رسالةً جوابية لأبي قال باسماً:

– هيه يا عشيق. ألا تريد أن تبعث أنت أيضاً برسالة

لأبيك؟ يبدو أنك بدأت تنسى مرارة الغربة التي أتينا بك مكرهاً إليها! لقد أغوتك روما، أليس كذلك؟

لم أجبه إلا بابتسامة حزينة نبتت على فمي كشوكةٍ برية. إنني لم أشأ أن أحمّله رسالةً إلى أبي ردّاً على رسالته الطويلة التي شرح لي فيها مرض أمي وموتها ونصحني فيها بالصبر والمواظبة على تعلّم اللغتين الإيطالية واللاتينية وإتقانهما. وفي الحقيقة فقد حاولت عدة مرات أن أدبّج رسالةً تعبّر عمّا يختلج في صدري من مشاعر الحزن والشوق ففشلت. كانت التعابير تخونني فأعجز بعد نصف سطر عن الاستمرار.

لم يكن لدي كلام أقوله لأبي بعد موت أمي.

أخيراً انطلقت عربة الراهب فصار يلوّح لنا بكلتا يديه حتى غاب عن أنظارنا واختفت العربة وراء أشجار الطريق.

ران على الحجرة صمتٌ أثقله الحزن ولم يُخفِّفه سوى خسيس النار في الموقد وشكوى الأشجار من مداعبة أنامل الريح لأغصانها بخشونة لا تليق إلا بريح الشمال.

حزن يونس حين قام بتدوين تلك الواقعة المؤلمة واستغلّ توقف الشيخ الحزين عن السرد فوضع القلم من يده وتثاءب فيما كان الشيخ متدثراً بعباءة الصمت يصغي للريح ويحدق في الموقد. بعد فترة صمت تمنّاها الفتى يونس مديدةً، قال عشيق المترجم وهو يتثاءب أيضاً:

- أكمل التدوين يا بني. يكاد الألم الذي اعتراني وأنا أنظر في

المرآة آنذاك يعتريني الآن أيضاً ويمنعني من التركيز.

– كما منعتك شظية المرآة أول مرة حين أردنا تدوين فاتحة كتاب **رحلة الفتيان إلى بلاد الصلبان.**

– نعم يا بني. واعلم أنه سيكون لنا مع هذه المرآة شأنٌ إلى آخر الكتاب. أكمل الآن تدوين ما سأمليه عليك:

كان معلّم اللغة اللاتينية، القسّ لورنزو اليسوعي من سيانا، معلماً لعلوم المنطق والفلسفة أيضاً. وقد ترقّى في مدارج الإكليروس حتى صار أسقفاً وسافر في إرسالية تبشيرية إلى الصين ولم نره بعد ذلك. وقد رأى هذا القس حزني ووجومي بعد سفر الراهب بولس فاستبقاني ذات يوم من أيام الخريف بعد درسٍ في المنطق الأرسطي وسألني عمّا يقلق راحتي ويشغلُ بالي، وكان يعلم أنني مسلم، فأخبرته أن الراهب بولس قد أخبرني بوفاة أمي وأنني حزين لأجل ذلك أشد الحزن.

بدأ القس يواسيني ويتحدث إلي عن فلسفة الموت ومعناه، وأن المرء يحيا بالمسيح وبالإيمان به، وأن الموت راحة من تعب الدنيا فلا ينبغي للإنسان أن يحزن على نيل الأحبة راحاتِهم، إلى آخر هذا الكلام وما شابهه من حكم وعظات. ثم صار بعد ذلك يخصّص لي كل يوم ساعةً من وقته فيأخذني إلى ضفاف نهر التيبر من جهة الأسوار أو يرافقني إلى إحدى ساحات روما فيحدثني كيف أن المسيح جاء ليخلّص البشر فتعذّب

لأجلهم وفداهم بجسده وحمل صليبه على ظهره وارتقى به إلى الجلجلة ليحيا به الناس، وحدثني أن كل إنسان آثم ملوث بالخطيئة لا يطهّره منها سوى اتّباعه المسيح وما إلى ذلك من عقائد النصارى.

حدثني ذلك القس أيضاً عن العثمانيين المسلمين المتوحّشين وكيف أنهم يقطفون الرؤوس ويعلّقونها على أسنّة الرماح عند بوابات القلاع وفي الساحات العامة. صار يصوّر لي أن وحشية العثمانيين وتفنّنهم في القتل ليست سوى صورة لدينهم ومعتقدهم الذي يأمر بذلك. حدثني القسّ اليسوعي ذاك عن أن المسيح لم يأتِ إلاّ لسلام العالم، بعكس الأنبياء الذين جاؤوا بالسيف ودعوا إلى سفك الدماء وإثارة الحروب.

ولم أكُ في ذلك الوقت إلاّ فتىً غراً تلقّفه القس مثل عجينةٍ يصنع منها ما يشاء. مضت أيام وأيام على تلك الحالٍ والقسّ يزرع غرائسه في تربة روحي ويسقيها بماء عِظاته المقدّسة المقتبسة كلها من الإنجيل وكلام القديسين حتى أينعتْ ولم أجد نفسي، بعد أن كرر عظاته على مسامعي، إلا وأنا أسرع ذات يوم إلى الكنيسة التي يسمّيها الطليانُ بلغتهم "بازيليكا بابالى دي سانتا ماريا ماجيوري"، وتعني "كنيسة الصدّيقة مريم البابوية العظمى"، فوق تلة إسكويلينو قريباً من اللاتيران.

كانت الساعة في برج الكنيسة تشير إلى الثالثة بعد

الظهر، ورأيت تلاميذَ فرنسيين من الأكاديمية الفرنسية يرسمون واجهة الكنيسة الفاتنة بأعمدتها وتماثيلها الباهرة وقبّتيها وبرجها الذي يعلوه صليبٌ يلمع في أشعة الشمس ومن خلفه تُرى أشجار سروٍ باسقةٌ بلونها الأخضر العذب وظلّها الظليل. كان ثمة تلاميذ آخرون بقبعات تقيهم الشمس طفقوا يرسمون العمود الشامخ المنتصب خلف حوض ماء فيه نافورة مياه جميلة، فيما كست السماءَ قطعٌ من الغيوم البيض وأسرابُ حمام سعيد.

كنت في تلك اللحظة غارقاً في همّي، موجةٌ تأخذني لتعيدني أخرى إلى ما كنت فيه. تجاذبتني الحيرة وأخواتها وصرت كريشة في مهبّ ريحٍ عاتية إلى أن قررت أن أصبح كاثوليكياً.

دهش الفتى يونس حين قام بتدوين آخر جملة. فغر فاه ونظر إلى المترجم عشيق مستغرباً، ثم سأل:

– هل تنصّرت يا مولاي؟

– كم أخاف أن يكون بيني وبينك ما كان بين موسى والعبد الصالح. أخاف أنك لن تستطيع معي صبراً يا يونس!

– اعذرني يا مولاي. ستجدني بعد الآن إن شاء الله صابراً.

– لم يبقَ لنا إلا القليل في هذه الليلة. ستذهب بعد ذلك إلى فراشك وسنكمل كل شيء ضحى الغد. أكتب ما سأمليه عليك الآن يا ولدي:

عصر ذلك اليوم أيقنتُ أنني لن أقدر على العيش في

روما ما لم أصبح مسيحياً مثل قاطنيها وزائريها. كان نداءٌ خفي من أعماق النفس يدعوني لأصبح خروفاً من خرفان الكنيسة، لكن نداءً آخر كان يدعوني إلى الصمود والبقاء على ديني وألا أصبح شاةً قاصية تفترسني الذئاب. كنتُ الشجرة اليتيمة على رأس التلة أصدّ بأغصاني كل تلك الرياح العاتية. ولكن أنّى لشجرة فُصلت عن غابتها وتُركت وحدها تصارع العواصف أن تصمد؟

بقيتُ على هذه الحال حوالي ثلاث ساعات أفكّر وأفكّر وأقلّب الأمر على وجوهه العديدة إلى أن مالت الشمس واختفت وراء التلال البعيدة غربي نهر التيبر ولاح لي صليب قبة كنيسة القديس بطرس يغتسل في ضوء شمس الغروب، فعدت إلى المدرسة وقلبي يمور بأحاسيس لا أعرف لها وصفاً.

لم أنم تلك الليلة.

ظن جرجس الذي بات يقاسمني الغرفة بدل شمعون النصيبيني أن موت أمي هو الذي يؤرقني مرةً أخرى فقال متبرماً:

- يا عشيق نم. كفاك حزناً يا أخي. أنت إنسان مؤمن. نم ودعنا ننام.

- ليس هذا الأرق حزناً على أمي يا جرجس. إنه ترجمة المحنة.

- ترجمة المحنة؟

قال جرجس ثم استوى جالساً في الفراش وأشعل شمعةً كانت بجوار رأسه. رأيت وجهه في الضوء الخافت ممتعضاً كالحاً. ولمّا سمح له الضوء الضعيف بمشاهدتي حدّق في وقال:

– ترجمة المحنة؟ أنا لا أفهم كلامك. هل تهذي يا عشيق؟

– لا يا جرجس أنا لا أهذي. إنني في محنةٍ كبيرة والأرق ترجمتها.

– من دون بلاغة يا صديقي. نحن لسنا في درس البيان. قل بوضوح ما الأمر؟

– تراودني فكرة اعتناق الدين المسيحي.

– أن تنام الآن وتدعني أنام خيرٌ من أن تفكّر في هذا الموضوع. أنت محموم. أقسم بالعذراء أنك تهذي.

وقبل أن ينفخ في الشمعة ويدسّ رأسه تحت اللحاف قال:

– وبأي لسان تترجم محنتك إلى أرق أيها الترادوتور عشيق؟

– بلسان الحيرة يا جرجس.

لم يعقِّب جرجس على كلامي، وما إن مضت دقيقة واحدة أو أقلّ حتى سمعت شخيره يشقّ عتمة الغرفة وسكونها. وكم حسدته تلك الليلة على هدوء روحه وطمأنينته التي دعوت الله أن يرزقني مثلها. نام رفيقي

أما أنا فقد بقيت قلقاً ساهراً مفكّراً في الأمر أتقلّب على فراشي كما يتقلّب جَدْيُ الشواء على الجمر. لم يتمكّن سلطان النوم مني إلا حين لمحتُ ضوء الفجر ينسرب من النافذة ويهتك ستر الأشياء وسمعت أول طائرٍ يغرّد على حافة سطح المدرسة.

تلك الليلة نمتُ على غير دين.

صباحاً فتحت عيني على صوت جرجس وجلبة استيقاظه. كانت الشمس قد أشرقت ورأيت رفيقي المصري يترنّم بصلواته وهو يرتدي ثيابه. وحين رآني استيقظتُ باكراً اعتذر مني ثم استدرك قائلاً:

– أنت بعوضة تمنع نوم الليل وأنا ديك الصباح. عمت صباحاً يا عشيق.

– عمت صباحاً أيها الديك. ليباركك الرب.

تناولنا فطورنا، جبناً وزيتوناً، ثم هيأنا أنفسنا لنلحق بزملائنا الذين سبقونا. وقبل أن نذهب إلى درس الفلسفة قال جرجس ضاحكاً:

– حلمت الليلة الماضية أنك تريد اتّباع الكثلكة وأنني منعتك من ذلك.

رددت عليه:

– أنا أرغب حقاً في ذلك يا جرجس، وأنت لم تحلم. ليلة أمس أردت أن أفضي لك بما يؤرّقني لكنك آثرت النوم على الاستماع لمعاناتي. سأصبح مسيحياً يا جرجس.

- يعني سترتدّ عن الإسلام؟

- لا يهمّني كيف تسمّي الأمر. سأصبح مسيحياً مثلك، فأنا لم أعد أطيق ما أنا فيه. ثم إنني لا أريد العودة إلى بلادي بل سأكمل تعليمي وربما عدت بعد سنتين.

- قلت إنك ستصبح مسيحياً مثلي؟ لا يا عشيق لن تصبح كذلك لأنني لست مسيحياً مثلهم. أنا من خرفان كنيسة القبط ورئيسِها أبينا يوأنس الطوخي ذي النعمة. إنك تريد أن تصبح على مذهب الكثلكة وتنحرف مثلهم.

- وما الفرق؟

- كالفرق بيني وبينك. هم يقولون مثلاً إن العذراء وُلِدَتْ من حَبَلٍ بلا دنس الخطيئة مثل ابنها يسوع. هم يقولون أيضاً إنّ الروح القدس منبثقٌ من الآب والابن. كثيرة جداً هي مخاريق هؤلاء الذين تريد أن تتبع ملّتهم يا ترادوتور.

عرفت أن ما يقوله جرجس ليس سوى كراهية مذهبية فلم أكترث بكلامه. لم أردّ عليه ولم تكن لديه هو أيضاً رغبةٌ كبيرة بمناقشة الأمر في ذلك الصباح الباكر. ترجمتُ إلى صمتٍ عميق كلَّ ما كان يعتورني في ذلك الصباح من أفكار صاخبة أتخمتُ بها خيالي.

توقف عشيق المترجم برهةً وضيّق عينيه كأنه يعصر ذاكرته فاستغلّها يونس فرصةً سانحةً ليستفسر:

- سبق وأن خاطبك جرجس بكلمة ترادوتور، فما معناها يا مولاي؟

- إنها تعني الترجمان بلغة الطليان يا يونس. وقد دأب رفيقي المصري على مناداتي بذلك اللقب لمّا رآني أترجم بعضَ ما في الكتب التي ندرسها وأدوّنه على قصاصات ورق صغيرة. ثم صار رفاقي الآخرون ينادونني بذلك اللقب حتى إن الفتيان القادمين حديثاً كانوا لا ينادونني إلا عشيق الترادوتور، أي عشيق المترجم. ثم أصبح ذلك لقبي الذي عُرفت به في روما بين أصحابي والقساوسة والرهبان كذلك.

كان الفضول ينهش يونس لمعرفة ما جرى بعد ذلك وهل تنصّر عشيق أم بقي على دينه، لكنه خاف أن يقول له المترجم مثل ما قال آنفاً "إنك لن تستطيع معي صبراً" فلاذ بالصمت ولم يعلّق بل انحنى ثانيةً على الورقة متهيئاً للكتابة.

- دوّن يا يونس آخر جملة لهذا اليوم.

جفل الفتى يونس حين سمع هذه الكلمات، فقد لفظها الشيخ بحدّةٍ رامَ من خلالها تنبيهه من النعاس الذي غلب أخيراً فضولَه فارتخت أجفانُه وبان التعب على محيّاه وتثاءب من جديد وخاف المترجم عشيق أن يسهو فيخطئ في الإملاء، لكنه حين رآه يقظاً متوثباً قال بنبرةٍ لطيفة ودودة مدوّناً آخر الجمل في تلك الليلة:

> ولم أكن مترجماً لما في كتب الطليان من قصص وأشعار فقط، بل لقد أصبحتُ مترجماً لمحنةٍ اعترضتني فأرّقتني على مدى ليالٍ طويلة وحرمتني الاستقرار لأيام وأيام. ترجمت محنتني تلك إلى طمأنينة وهدوء فدخلت

المسيحية وعمّدني المطران الماروني اللبناني جبرائيل
حوًّا بنفسه قبل أن يسافر إلى لبنان قاصداً رسولياً من
لدن كرسي البابوية العظمى في روما نهاية عام ١٧١٢.

حين أوى يونس إلى فراشه، بعد ذلك اليوم الماطر الطويل الذي قضاه في تدوين فصول عجيبة من سيرة عشيق المترجم في بلاد الطليان، بقي ساعةً يتقلّب على جنبيه دون أن يجرّه النعاس الصياد إلى فخاخه اللذيذة، فتمتم بأدعيةٍ وصلوات كان حفظها أيام اشتغاله بالنسخ في بغداد لعلها تنفع في دفع الأرق، لكن ذلك لم يفده. لقد كان لما دوّنه طيلة النهار من قلق عشيق المترجم وحيرته ثم اعتناقه الدين المسيحي أثرٌ بالغ في سهاده ذاك. وتبيّن له أن الغيوم لم تستطع النوم أيضاً فبقيت تثرثر وتنقر نافذته نقراً لطيفاً ذكّره بهمس الخادمات الأربع في ذلك البيت الفسيح حين يأوين إلى فرشهن للنوم. حاول كثيراً أن يفكّر بأمور سعيدة، كما كانت أمه تنصحه قبل النوم في طفولته، ففكّر في البحر الذي رآه قبل أيام واستحضر صوت الأمواج لعله ينام على وقعه، ولكن دون جدوى. ولمّا لم يُجْدِه ذلك كله استحضر صورة أسراب الزرازير التي تملأ الأجواء في القَرية وتحطّ على الحقول هنا وهناك، فصار يعدّها سرباً سرباً حتى جذبه النعاس إلى شراكه وأصابه بسهمه فنام ونامت معه الغيوم التي كفّت عن الثرثرة وهجعت كالأطفال.

الفصل الخامس

أسرار لشجرة الكينا

- يا يونس. يا يونس.

نادى المترجم خادمه النسّاخ يونس فلم يحظَ بجوابٍ منه. كان عشيق قد استيقظ باكراً فرأى شمساً مشرقة ملأت الأجواء بدفءٍ نادر في مثل تلك الأيام من السنة، وضجّت الأنحاء بأصوات الطيور وقد أبهجها النور الودود لشمس شباط.

- يا يونس.

نادى المترجم للمرة الثالثة فاستيقظ الفتى مذعوراً واتجه إلى النافذة المطلة على باحة الدار ليرى مولاه واقفاً عند شجرة الكينا ينظر إلى السماء التي تركتها غيوم الأمس ورحلت دون أن تبقي أثراً لها.

فتح فلقةً من النافذة وقال:

- استيقظت يا سيدي. سآتيك حالاً.

ثم ارتدى ثيابه على عجل وخرج.

- صباح الخير يا ولدي. لقد طال نومك اليوم!

- عذراً يا مولاي. لم أستطع أن أنام البارحة.

- أكانت غرفتك باردة؟

- كلا يا سيدي، لم تكن باردة بل كانت دافئة كثيراً. لكنني...

لم يدع الشيخ فرصةً ليونس كي يكمل جملته بل قال وهو يمدّ يده من تحت عباءته الفرو إلى جذع الشجرة الباسقة وينتزع قشرةً مهترئة:

- أرّقتك حكاياتي يا يونس. أعرف ذلك. إنك تستغرب اعتناقي المسيحية. ولا أدري ما تُسرُّ به لنفسك بعد أن سمعت كل هذه الحكايات، لكنني أوصيك بالصبر يا ولدي. إن جزءَ الصورة ليست الصورة الصحيحة، والشوكةُ جزءٌ من نبات الورد وليست الورد بعينه. عليك أن تسمعني إلى النهاية، إلى آخر سطر من فصول **رحلة الفتيان إلى بلاد الصلبان**، إلى أن أقول لك "لقد انتهينا من الكتاب الثاني ولم يبقَ في جعبتي ما أسرده أنا وتدونه أنت". هنالك فقط يحق لك أن تستفسر وتعترض وتأرق. أما الآن فدع المعمَّيات الغامضات لتكشفه لك الأيام القليلة القادمات.

نزع الشيخ قشرةً صغيرةً أخرى، ثم واحدةً أخرى وأخرى، ثم قال:

- نحن بحاجة إلى صمغ عربي وحبر وقراطيس وأعشاب مجففة وأدوية وبعض الأشياء الأخرى. ستذهب اليوم مع الحوذي إلى أنطاكية لتأتي بها ثم تعود مساءً.

- والتدوين؟

- لا عليك من ذلك. سنستريح اليوم وربما إن جئت قبل الغروب أمليت عليك صفحة أو صفحتين، وإلا فأمامنا الغد وبعده ثم الذي يليه وننتهي إن شاء الله. لن أكون شهرزاد يا يونس.

أنهى الشيخ جملته تلك ضاحكاً. صمت برهةً ثم أردف:

- أسرع وتناول فطورك الآن ثم اذهب إلى الحوذي فقد أخبرته بكل شيء وهو سيأخذك إلى السوق ويدلّك على الحوانيت فتشتري أنت منها ما يلزمنا ثم تعودان. هيا. رافقتكما السلامة.

تناول يونس فطوره وحيداً في حجرته ثم حمل عدة أكياس أعدّتها الخادمات وارتدى معطفه وخرج ترمقه الخادمة ذات الوشاح الأحمر حتى صفق الباب وراءه بهدوء.

***

ملأت شمس الضحى باحة دار المترجم بالدفء والنور وحطّت على أغصان الكينا عصافير كثيرة مبتهجة بتلك الشمس النادرة ثم طارت حين صفق الشيخ عشيق مرتين ينادي الخادمات. لم تمض دقائق حتى كانت الخادمة ذات الوشاح الأحمر، وهي أصغرهن سناً، حاضرةً بين يديه.

- تفضل مولاي!

- أحضري يا زينب كرسياً وإسكملة وقولي لمن في المطبخ يصنعن لي مغليَّ النعناع.

- أمرك يا سيدي.

ردّت الخادمة زينب بصوت لا يكاد يُسمع ثم ذهبت على عجل إلى المطبخ فأخبرت زميلاتها الثلاث بما طلبه عشيق المترجم، ثم أحضرت الكرسي والإسكملة ووضعتهما تحت شجرة الكينا.

كان عشيق لا يزال مشغولاً بنزع قطع صغيرة من اللحاء العجوز عن الجذع حين جاءت زينب بالكرسي فجلس عليه وهو ينفض يديه مما علق بهما من قشرٍ هرِم.

– تفضل يا سيدي.

قالت خادمة أخرى قادمة من المطبخ وهي تضع طبقاً فضياً عليه كأس مغلي النعناع على الإسكملة الخشبية الصغيرة ثم تراجعت إلى الخلف خطوتين فتبسّم لها الشيخ ضاحكاً وقال:

– بوركتِ. بوركتما. يمكنكما الانصراف يا ابنتيَّ.

انصرفت الخادمتان بهدوء وبقي عشيق المترجم يرتشف مغلي النعناع الذي تلوّى فوقه بخارٌ لطيف تصاعد حتى غاب بين أغصان شجرة الكينا. صار ينظر بين الفينة والأخرى إلى تلك الأغصان الشاهقة، ثم أغمض عينيه وغرق في بحور الذاكرة العميقة.

تذكّر يوم قام المطران الحلبي جبرائيل حوًّا بتعميده في المدرسة. كان يوماً مشهوداً حضره جميع التلاميذ والقساوسة والمعلّمين وبعض المطارنة والخوارنة وجمعٌ من أعيان المنطقة. أُلقيت خطب قصيرة أعقبها قيام المطران بغمس باقة من نبات الزوفا في الماء المقدّس ثم نثره في اتجاه محمد عشيق الدين الأنطاكي وهو يترنّم بآياتٍ من الإنجيل. حاول عشيق أن يتّقي بشكل عفوي الرذاذ الذي يضرب وجهه. ابتسم سابا الزجّال وشمعون النصيبيني فيما كان جرجس ممتعض الوجه يحدّق في زميله المسلم الذي يخضع باستسلام وخدر لطقوس اعتناق تلك المسيحية المنحرفة وتمنّى في قلبه لو كان هو الذي أقنع زميله باعتناق هذا الدين وعلى وجهه الأرثوذكسي الصحيح.

بعد أن نثر المطران الماء المقدس ثلاث مرات بدأ سابا الزجّال بصوته العذب تلاوة ترانيم كنسية بالسريانية سرعان ما ردّدها الحاضرون بصوت واحد. أخيراً أعلن المطران اسم المسيحي الجديد، يوحنا، فقال: "إنّه يوحنا على اسم شفيع هذه المدرسة المباركة. أخوكم يوحنا".

انتهى التعميد.

أصبح عشيق منذ تلك اللحظة مسيحياً. وقد وجد في البداية شيئاً من الصعوبة سرعان ما استطاع تلافيها فنسي كل شيء. كلمات الإطراء ونظرات الاستحسان التي كان يتحفه الناس بها في كل مكان والاحتفاء العجيب أنّى ذهب كاد يذهب بعقله. بدا أن سابا الزجال اللبناني أكثر الفتيان سعادةً فصار ينشد الأزجال كل ليلة بصوته الرخيم على مدى أسبوع كامل. لكن علاقته ساءت قليلاً بجرجس المصري الذي قال له يوماً: "أنا سعيد لأنك صرت تؤمن بالمسيح، لكن ليس بهذه الطريقة يا يوحنا. طريق المسيح غير هذا". لكنهما بقيا صديقين حتى ذلك اليوم الذي سافر فيه الفتية الثلاثة، سابا وجرجس وشمعون، وبعض الفتية الآخرين إلى الشرق بعد أن أكملوا تعليمهم. لم يكن الراهب الماروني بولس قد ظهر بعد، فعاد الفتيان الثلاثة مع راهب ماروني آخر، لكنّ عشيقاً لم يعد. قال إنه سينتظر الراهب بولس ولن يعود إلا معه. أرسل إلى أبيه مع ذاك الراهب رسالة يُعلمه فيها أنه لن يعود الآن إلى بلاده. زعم في رسالته تلك أنه يجب أن يتعمق في دراسة اللاهوت وأنه سيذهب إلى جامعة فلورنسة وجامعة بيزا وغيرهما للحصول على المخطوطات العربية من جهة، ومن جهة أخرى للحصول على كتب إيطالية ولاتينية تستحق الترجمة وبذلك يحقق الهدف الذي أرسله أبوه

لأجله إلى روما. شعر في قرارة نفسه أنه ينتقم من أبيه الذي أكرهه على السفر خارج قريته وفصله عن لحظات متعه مع حبيبته إستر وسعادته الغامرة في ساعات اللقاء بها. شعرِ أنه ثأر لنفسه وانتقم من أبيه التاجر لأنه فصله عن أمه التي كان يحبها وماتت دون أن يراها. انتقم لمن فصله عن قريته الصغيرة الوادعة التي شهدت طفولته الأولى وحبه الأول.

لم تمضِ ستة أشهر على اعتناقه المسيحية حتى تمّ تعيينه مدرّساً للغة العربية في معهد صغير للرهبان بمنطقة اللاتيران وأشرف عليه القسّ اليسوعي لورنزو بنفسه. لم يكن وقتها قد بلغ العشرين عاماً حين أصبح في ذلك المعهد معلّماً للعربية، ومع ذلك فقد تتلمذ على يده رهبان كثيرون كانوا في طريقهم إلى العراق وبلاد الشام ومصر وبعض ممالك الإمبراطورية العثمانية الأخرى للتبشير بالكاثوليكية بين الخليقة عامةً وهداية المسيحيين الشرقيين على وجه الخصوص.

وقد تعرف معلم العربية الجديد عشيق المترجم الأنطاكي، الذي صاروا ينادونه الأستاذ يوحنا، خلال تردده على ذلك المعهد، إلى فتاة كانت قادمة مع أسرتها الثرية من البندقية. سكنت أسرة الفتاة بيتاً حجرياً جميلاً من طابقين بسقف من القرميد الأحمر ونوافذ وشرفات مليئة بالورود في زاوية شارع يقع على مسافة ألف خطوة إلى الغرب من البوابة المسمّاة بورتا ماجيوري، وكان ذلك البيت الجميل ملاصقاً للمعهد فكان كلما ذهب عشيق إلى الدرس صباحاً وجد الفتاة تطلّ من النافذة أو تقف في شرفة الطابق العلوي تسقي أصص ورد مرصوفة على الحافة من جهة الشارع. خفق قلبه لها فتعلّق بها وصار يحدّق فيها كلما اقترب من المعهد ويتعمّد إصدار جلبة من خطواته ليلفت نظرها.

وذات مرة رآها عن قرب.

كان عشيق قد تعمّد ذلك الصباح المرورَ بجانب النافذة وأبطأ خطواته فرآها فاتنة الجمال، مدورة الوجه، بيضاء ذات شفتين برعميتين وعينين زرقاوين يملؤهما حزنٌ غامضٌ عميق.

أنسته تلكما العينان كل شيء.

نسي عشيق حبيبته إستر اليهودية ابنة الصفّار الأرمني، اعتبرها شأناً طفولياً ونزوةً عابرة. غاصت إستر عميقاً في بحيرة النسيان التي طاب لعشيق أن يجلس على ضفافها. نسي أن قلبه خفق لها وأنه كاد يهجر الدنيا بما ومن فيها لأجل أن يظفر بها، وأنه حين قبّلها أول مرة في حجرة بمنزله في قرية ميدان غاب في نهر من لذة لم يذق مثلها أبداً. نسي أنه كاد يرفض مشيئة أبيه في إيفاده إلى روما لدراسة الإيطالية لأجلها. نسي عشيق قريته والبحر وأنطاكية وحلب والحوذي وأمه المتوفاة وأترابه وأباه. استهوته الحياة الجديدة بما فيها من متع ومسرّات جديدة وتشويقٍ جديد.

لكنّ ما حيّر عشيقاً وأقلقه أنه كان يرى تلك الفتاة الإيطالية الفاتنة، كلّما صادفها، دائمة الحزن ساهمةً واجمةً تحدّق في الشارع بصمت أو تسقي الورود وهي تدندن بلحن أغنيةٍ حزينة.

وذات مرة تجاسر حين رآها تسقي الورود فتوقّف عند النافذة وخاطبها بلطف:

- صباح الخير يا ألطف آنسة في روما. أتتكرمين علي بنطق اسمك البهي؟

قطعت الفتاة أغنيتها الحزينة، ابتسمت بغنج ودلال ثم قالت:

– آبيلينا دونّا. اسمي هو آبيلينا. وأنت ما اسمك أيها الشاب اللطيف؟

أجاب على الفور وقلبه يخفق:

– عشـ... يوحنا. اسمي هو يوحنا.

ثم تلفّت حوله ولمّا لم يجد أحداً أمسك بيدها يلثمها بخشوع ولهفة. فوجئت آبيلينا دونّا. سحبت يدها برقة ثم أغلقت النافذة وهي تضحك.

بقيت أنغام تلك الضحكة ترنّ في خيال عشيق أياماً وأياماً. أضاءت تلك الضحكة زوايا معتمة من روحه، سقت زهورَ حبٍّ ذابلة في قلبه.

أنسته تلك الضحكة دينه ودنياه.

لم يمضِ شهران حتى خطبها يوحنا، أي عشيق، لنفسه.

رفض والدها السينيور ماتيو دونّا في البداية. قال إن يوحنا مسيحيٌّ شرقيّ وإنه لن يزوّج ابنته لرجلٍ قد يجرفه الحنين إلى وطنه ذات يوم فيسافر ويعود إلى بيته في أيةٍ لحظة. لكن أم آبيلينا كانت معجبة بهذا المسيحي الشرقي "الوسيم الذي يتقن عدة لغات ويتقاضى أجراً جزيلاً" حسبما قالت لزوجها ذات مساء وهي تحاول أن تقنعه بالموضوع . لكن الأب لم يقتنع مع ذلك، فطلبت الأم من القس لورنزو التدخّل فسعى في ذلك وعمل ما في وسعه حتى أقنع الوالد العنيد بفكرة الخطبة أولاً حيث تكون ثمة فسحة من الوقت "ليعاين السينيور ماتيو أخلاق الفتى ويمتحن صدقه"، فوافق على مضض. ثم بعد أن مضت الأيام أعجبه أيضاً ذلك الشاب الشرقي وهدوءه ومعرفته الكبيرة باللاهوت واللغات إلى جانب "حالته الميسورة بسبب كسبه

الكثير من الدوقات والفلورينات لقاء تعليمه الرهبان اللغة العربية" كما كان يقول لجيرانه وأقربائه وأصدقائه. وذات يوم سبت لطيف الطقس أقيم حفل زواج صغير في كاتدرائية القديس جيوفاني في اللاتيران. باركهما الكاهن فنثر عليهما الماء المقدس ثم صلّى لأجل وحدة روحيهما إلى أبد الآبدين فردّد الحضور "آمين" وردّدت جنبات فناء الكاتدرائية صدى كلمة آمين خاشعة مديدة مفعمة بالأمل.

انتقل عشيق فيما بعد للعيش مع زوجته الحلوة آبيلينا ووالديها. أعطوهما غرفةً صغيرة في الطابق العلوي تشرف نافذتها الغربية على الكولسيوم في حين تشرف نافذتها الجنوبية على كاتدرائية القديس جيوفاني حيث يُرى كل صباح برجاها المكللان بصليبين لامعين وأمامهما في ساحة الكنيسة تنتصب مسلةٌ عملاقة تصعد عالياً في السماء. أما بقية العائلة فسكنت في الطابق الأرضي المطلّ على حديقة جنوبية فسيحة جميلة.

لم يعكّر صفو حياة عشيق العثماني المسلم سابقاً وآبيلينا المسيحية الكاثوليكية ابنة جمهورية البندقية أيُّ شيء. عاشا سنوات هنيّة رخيّة ولم يهتمّا حتى بحروب البندقية والنمسا ضد الدولة العثمانية ولا شغلا نفسيهما بأخبار تناقلها الناس عن معاهدة سلام بين البندقية والنمسا من جهة والبلاد العثمانية من جهة أخرى وقّعها مندوبو تلك الدول صيف عام ١٧١٨.

لكن الذي أرّق هذين الزوجين السعيدين هو أنهما لم يرزقا بولد يملأ عليهما تلك الحياة الرغيدة أنساً وحبوراً. لم تترك آبيلينا على مدى أعوام كثيرة كنيسةً ولا ديراً إلا وذهبت إليه وتوسّلت أمام العذراء

مريم أن تحنّ عليها بمحبة المسيح الطفل فنذرت النذور وأشعلت الشموع وذرفت الدموع دون جدوى.

ولقد فُجعت آبيلينا، قبل أن تتزوج من عشيق، كما روت له ذات ليلة، بوفاة خطيبها التاجر آلبرتو دي سيلفا[1] الذي كان يتردّد بين حلب وأصفهان ويعود كل فترة من هناك إلى البندقية محمّلاً بأحمال البسط الأصفهانية والزعفران والدارصيني والفلفل والقرنفل والكافور والزنجبيل والنيلة. وقد جمع هذا التاجر الشاب بذلك ثروةً طائلة منها منزلٌ جميل في حلب. ولقد أوصى آلبرتو بربع ثروته لخطيبته آبيلينا التي تلقّت منه، سنة قدوم عشيق إلى روما، رسالةً فيها تلك الوصية وقصيدةَ غزلٍ جميلة كتبها في أحد الخانات في بلاد الكرد عند حدود أرمينية حيث حوصر هو ورفاقه بالثلج والذئاب ومجموعة غريبة اقتحمت الخان فجأة. وقد حاولت تلك المجموعة أن تُكره نزلاءَ الخان على اعتناق عقائدهم وترك دياناتهم الباطلة كما زعموا وهم يلوّحون بالسيوف فوق رؤوس النزلاء الهلعين. ذُبِح آلبرتو دي سيلفا مثل خروف في ذلك الخان أمام عينَي رفيقه وصديقه الشاب الألماني مارتين. أما مارتين فقد نجا من مذبحة الخان تلك وهرب بجلده محمَّلاً برسالة آلبرتو المسكين حيث سلّمها إلى تاجر من البندقية على متن السفينة التي

[1] "في خان الدكة التقيت برجل ينوي الذهاب إلى أصفهان اسمه آلبرتو دي سيلفا أصبح فيما بعد صديقاً حميماً لي. كان آلبرتو عازفاً بارعاً على الماندولين وله صوتٌ عذب ناعم ورقيق كالحرير حين تصدح حنجرته بالأغاني التي تتحدث عن أوطان بعيدة ومحبوبات بعيدة ومدن بعيدة. وحتى الآن، حتى هذه اللحظة حيث ترميني قدماي على طريق سعادة جديدة متوجهاً إلى صديقي آلبرتو، لم أرَ صديقاً وفياً صادقاً مثله". من رواية **مارتين السعيد** لجان دوست (منشورات هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، ٢٠١٥).

أقلّت الفتى عشيق ورفاقه من ميناء الإسكندرون إلى قبرص.

حزنت آبيلينا حين جاءها ذلك التاجر بالخبر. لم تأبه بالوصية المختومة لكنها حزنت على فقدان خطيبها كثيراً ووصلت ليلها بنهارها تبكيه حتى خاف عليها والدها الهلاك فترك البندقية وراء ظهره، بعد حصر الإرث الذي خلّفه آلبرتو دي سيلفا وراءه، وجاء إلى روما ليجاور الأماكن المقدسة فيها لعل وعسى يخفّف تغيير المكان عن روح ابنته القلقة المثقلة بالكمد.

***

بعد سبعة أعوام رتيبة قضاها عشيق في تعليم الرهبان الكاثوليك اللغةَ العربية سافر القسّ اليسوعي لورنزو، بعد أن صار أسقفاً، إلى الصين في بعثة تبشيرية على نفقة الفاتيكان. ولم يستطع عشيق أن يستمر في سلك التعليم بعد رحيل راعيه وعرّابه في روما. ترك عشيقٌ التعليم، ترك البحث عن المخطوطات العربية في رفوف مكتبات الأديرة والكنائس والجامعات، ترك الترجمة التي فارق أهله ووطنه وسافر لأجلها إلى تلك البلاد البعيدة ولم ينل من كل ذلك سوى لقب عشيق المترجم الذي أسبغه عليه رفاقه. حصل على بعض الكتب باللغتين الإيطالية واللاتينية وحاول عدة مرات أن يترجم منها إلا أنه سرعان ما كان يضجر ويدع ما بدأ بترجمته جانباً. بقي عشيق إلى جانب زوجته الجميلة يسقي معها زهور الحديقة ويذهب كلما سمح الطقس في نزهات استجمام إلى بوابة بورتا ماجيورى القريبة أو إلى بئر تريفي أو الحدائق المحيطة

بالبانثيون قريباً من ضفة التيبر. لم تمضِ إلا مدة قصيرة على تركه التعليم حتى أقنعه السينيور ماتيو بالاشتغال معه في تجارة الخمور التوسكانية.

كان السينيور ماتيو تاجر خمور عرفته البندقية كلها قبل أن يهاجر إلى الدولة البابوية ويستقر في روما لأجل راحة ابنته، وحين عرض على صهره عشيق فكرة مساعدته في التجارة قبل عشيق بعد أيام من التردّد وتفرّغ تماماً لتجارة الخمور، ثم بدأ يسافر إلى أراضي دوقية توسكانا لجلب خمرة كيانتي الشهيرة في براميل الخشب وزجاجات الفياسكو حيث كان السينيور ماتيو يتكفّل ببيعها لتجّار روما ومدن الجنوب الإيطالي في مملكة نابولي.

لسنوات وسنوات انشغل عشيق مع والد زوجته بتجارة الخمر، بينما انشغلت أوربا كلها بالحروب وسفك الدماء خاصةً بعد أن مات إمبراطور النمسا شارل السادس عام ١٧٤٠ ونشبت حرب ضروس على التاج النمساوي شاركت فيه الألوف المؤلفة من الجنود وسُفكت فيها الدماء الغزيرة في ساحات القتال بنفس القدر الذي سُفكت فيه الخمور على موائد الصعاليك والنبلاء والرهبان على حدٍّ سواء.

عرف عشيق في رحلاته نساءً كثيرات. زار حانات دوقية توسكانا حانةً حانة، وضاجع عاهرات مواخيرها، بل أغوى فتيات صغيرات كثيرات خلال أسفاره كتاجر خمور وقادهن إلى شراكه. صار عشيق ما إن يصل إلى مدينة من مدن الشمال الإيطالي حتى يستأجر غرفةً في أحد فنادقها ويتّخذها وكراً لشهواته المحرّمة التي لم يستطع حبه الكبير لزوجته أن يقف حائلاً بينه وبينها. وفي فلورنسة اتّخذ خليلةً صغيرة السن اسمها آدونيا. كانت آدونيا كورسيكية سمراء مدوّرة

الوجه بعينين فاتحتي الخضرة. وقد هربت تلك الفتاة من الجزيرة المضطربة حين ثار سكانها قبل عدة أعوام ولجأت وحدها إلى فلورنسة. التقى بها عشيق ذات ليلة في حانةٍ صغيرة غير بعيدة عن الجسر القديم على ضفة نهر أرنو، فسحرته عيناها اللامعتان بخضرةٍ تشبه خضرة أوراق الزيتون في ضوء الشمس. سحرته ابتسامتها الرقيقة التي كانت تريقها على روحه كلّما صبّت له كأساً من النبيذ. سحرته بشرتها السمراء الدافئة وشعرها الداكن الذي كانت رائحة البحر تفوح منه على الدوام. كان هناك عازفٌ كهل يدندن لحن أغنية كورسيكية بآلة الماندولين وتلتمع في عينيه المحمرّتين من أثر الخمر أحزانٌ كثيرة، وكانت آدونيا تصبّ له الكأس الخامسة حين دخل عشيق وطلب لنفسه كأسَ نبيذٍ توسكاني. غرقت تلك الحانة في ضوء القناديل وألحان الماندولين وسحر عينَي آدونيا الخضراوين، وغرق عشيق أيضاً في ذلك السحر الذي لا يمنحه إلا السكر والليل لزائرٍ غريب. وقد بقيت ساقية الحانة آدونيا الحلوة خليلتَه، وكان عشيق يناديها دُنيا، حتى اختفت فجأةً بعد أعوامٍ عديدة فحزن عليها عشيق إلا أنه سرعان ما نسيها في خضمّ انشغالاته وخليلاته الجديدات.

ما عاد يهمّه في تلك الفترة الصاخبة من حياته أيُّ شيء، لا وطنه الذي لفَّه ضباب الذكريات، ولا أبوه الذي لم يعد يسمع عنه أي خبر خاصةً بعد أن حمل شمّاسٌ حلبي اسمه لاونديوس سالم، وفد إلى روما سنة ١٧٤٣، نبأ موت الراهب الماروني بولس في حادثة غرق سفينة قرب شواطئ المورة في اليونان. "ربما كان يحمل رسائل من إستر أو من أبي"، ردّد عشيق تلك العبارة في نفسه لبضعة أيام ثم

انصرف إلى أعماله فنسي الراهب ونسي أمر الرسائل المحتملة. نسي حتى أمر كونه لم ينجب ذريةً تخلفه وترث ما جمعه من ثروة. كان يقرأ بصمت وصبر ترانيم حزنٍ غامر على وجه زوجته آبيلينا الذي بدأت التجداعيد تغزوه وتمحو رويداً رويداً آيات الجمال فيه. في نهاية الأمر استسلمت الزوجة وفقدت كل أمل في حدوث معجزة ربّانية تنجب بفضلها ولداً وهي في الخمسين من العمر، كما ولدت سارةُ زوجةُ إبراهيمَ إسحاقاً وهي في قمة شيخوختها بحسب ما جاء في متون الكتاب المقدّس الذي لم يكن يبارح حضن الزوجة البائسة.

وذات مساء من أمسيات الوحدة الكئيبة، التي كانت تعيشها آبيلينا حين يغيب زوجها عشيق في سفر أو سهرة شراب ولهو مع أصدقائه التجار، وقفت آبيلينا بوجهها الحزين أمام المرآة ذات إطار الأبنوس التي أرسلتها سارة أم عشيق معه إلى روما. كانت تلك المرآة تتوسّط الجدار الغربي إلى يمين النافذة المطلّة على الكولسيوم. حدّقت آبيلينا في نفسها طويلاً، نظرت إلى وجهها الذي غزته التجاعيد، تحسّست نهديها وتخيّلت طفلاً رضيعاً تحضنه وتناغيه وهو يرضع من ثدييها حليباً ثرّاً. نزلت دموعٌ غزيرة من عينيها جعلت صورتها في المرآة تلوح مثل شجرةٍ في الضباب. قالت بصوتٍ مفجوع: "أنا شجرةٌ لا تثمر. أنا عاقر ورحمي نبع ماءٍ جَفّ. لماذا يا الله! أتريد أن تمتحنني وأنت العليم بضعف ابن الإنسان؟ لماذا اخترتني أنا عبدتك الضعيفة للامتحان يا رب؟ لماذا!!!!!؟" ثم ضربت المرآة بعرض الحائط. هاجت آبيلينا، حطّمت المرآة إلى شظايا تبعثرت في أرجاء الغرفة. لم يبقَ من تلك المرآة سوى قطعة صغيرة واحدة وتفتّت الباقي إلى قطع صغيرة

كالملح. حين جاء عشيق في آخر الليل وجد امرأته جالسةً على الفراش تبكي ووجد تلك القطعة من المرآة المحطّمة. انحنى عليها بهدوء ثم حملها كأنه يحمل روح أمه الطيبة بين يديه. وضع تلك القطعة على طاولة الزينة الصغيرة قرب السرير ثم جلس بجانب زوجته يواسيها ويمسح على شعرها ويقبّلها حتى سكنت ونامت ونام هو أيضاً.

***

بعد ثمانية أعوام انتهت حرب الصراع على تاج الإمبراطورية النمساوية في عام ١٧٤٨ وخرست المدافع في سهوب أوربا، فانتعشت تجارة الخمور وصارت تدرّ أرباحاً طائلة أكثر من ذي قبل، لكن السينيور ماتيو كان قد وصل إلى أرذل العمر فمات بعد عامين تلته زوجته المريضة بعد عدة أشهر فقط. لم يكتب السينيور ماتيو في وصيته شيئاً لصهره عشيق إلا بضع عشرات من الفلورينات الذهبية بدل أتعابه وتنقلاته الكثيرة. لكن عشيقاً لم يهتم بأمر التركة كثيراً وواصل التجارة بهمة ونشاط حتى بعد وفاة والد آبيلينا. لكن التجارة باتت ترهقه، خاصةً بعد أن ظهر منافسون أقوياء من دوقية توسكانا وجمهورية جنوة حملوا إلى الدولة البابوية من الخمور ما لو أُريقت لجرى نهرٌ مثل التيبر بمحاذاته.

لم يقوَ عشيق على منافسة حيتان تجارة الخمور ولم يكن يرغب في ذلك أصلاً. لقد تعب بما فيه الكفاية وأراد أن يرتاح من وعثاء السنين فارتخت قبضته التي أمسك بها لسنوات عدة تجارةً واسعة

وصار لا يهتم بما ربحه وما خسره حتى كادت تجارته تبور. ولم تكد حرب السنوات السبع تبدأ حتى قرّر ترك التجارة نهائياً لأحد أقرباء السينيور ماتيو، ورغب في أن يزجي أوقات فراغه بالبحث عن بعض الكتب لترجمتها إلى العربية مؤملاً بذلك أن يحقّق رغبة أبيه الذي لم يعد يشك في أنه قد مات منذ زمنٍ بعيد.

كان عشيق قد تجاوز الستين عاماً حينٍ وقعت زوجته آبيلينا ذات شتاء قارس فريسةَ مرضٍ عضال ألزمها الفراش عاماً كاملاً رعاها فيه أفضل رعاية. ولمّا ماتت بعد سنة دفنها بجانب أبيها وأمها اللذين سبقاها إلى القبر وذرف عليها دموعاً لم يرها أحد سوى قطعة المرآة الصغيرة تلك في ليالي وحدته الباردة الكئيبة. حزن حزناً شديداً على تلك المرأة التي أحبها بالرغم من كثيرٍ من ساعات الكدور والنكد التي عاشاها سويةً بسبب انشغالاته وأسفاره الكثيرة. حزن عليها لأنها رحلت ولم تضمّ إلى صدرها رضيعاً ولا ناغت وليداً ولا مشّطت شعر ابنةٍ لها.

وبعد موتها بأسابيع قليلة جاء أقرباء السنيور ماتيو الذين استحوذوا على كل ممتلكاته وممتلكات ابنته وطالبوا عشيقاً بالخروج من الدار التي عاش فيها قرابة الأربعين عاماً بعد أن حرموه من كل ميراث، فخرج دون إبطاء أو تردّد.

ولمّا رأى أنه قضى عمره كله في أمور لا علاقة لها بالغاية التي أتى لأجلها إلى تلك البلاد، وأن تعبه في تجارة الخمور ذهب سدىً، فكر في تعويض ما فاته فقرّر في البداية أن يترهّب وينزوي في جبلٍ ما بعيداً عن الناس يختلي بنفسه ويتأمل الوجود، إلاّ أنه تذكّر ما قال له القسّ لوسيانو ذات مساء على ضفة التيبر: "إن الرهبانية الحقة هي أن تنفع الناس وإن

لم تتّخذ على ذلك أجراً". فكّر عشيق أنه قد قصّر بحق أبيه كثيراً وأن الوقت قد حان ليفي بوعده له ويَبَرَّ به بعد أن عَقَّهُ لسنوات وسنوات بلا مُسوِّغ فيحقق على الأقل مأربه لعلّ روحه ترتاح في قبره البعيد.

استأجر بعد بحثٍ طويل بيتاً صغيراً في ناصية شارع قريب من بوابة أوستينسيس. هناك شعر بروح الشباب تسري في عروقه من جديد فانصرف إلى الترجمة بنشاط وأنجز في خمسة أعوام ما عجز عن إنجازه في عمره كله الذي اقترب من السبعين. عرَّب المترجم عديداً من كتب الفلسفة واللاهوت كان منها كتاب وصله قبل أشهر اسمه **الفلسفة الرياضية في اللاهوت الديني** ألّفه أحد الآباء الكبّوشيين قبل خمسة عشر عاماً. كان يسهر كل ليلة حتى الصباح، يحتسي الخمرة التوسكانية ويترجم على ضوء الشموع ما تيسّر له من صفحات. أما الكتاب الذي نال في ترجمته متعةً لا تقاس بأية متعةٍ أخرى فقد كان كتابَ **الاعترافات** من تأليف القديس أوغسطين. بدأ عشيق ترجمة الكتاب ذاك من اللاتينية دون أن يكون على علم بأن الشماس الحلبي لاونديوس سالم قد ترجم الكتاب ذاته قبل سنة كاملة وأرسله إلى حلب لنشره وطبعه هناك. كان عشيق يرى نفسه في ذلك الكتاب وتماهى مع مؤلِّفه القديس أوغسطين في اعتناقه المانوية في بداية حيرته الروحية، وكذلك تماهى مع ندمه على ما اقترفه في بداية شبابه وضياعه بين الأديان والمعتقدات. رأى نفسه يشبه القديس أوغسطين في كثيرٍ من مفاصل حياته حتى ظن في بعض الأحيان أنه يدوّن سيرته التي أرجأ تدوينها لدافعٍ خفي. أثارت اعترافات القديس الشهير عواصف أسئلة كثيرة لديه. هبّت رياح الشك من بين سطور

ذلك الكتاب العجيب لتعصف بأشجار يقينه، فشعر بالندم على ما فعله من ترك دينه وقضاء حياته كلها في بلادٍ غريبةٍ بعيدة. ندم لأنه ترك والديه ولم يكن بقربهما ساعة رحل كلٌ واحدٍ منهما عن هذه الحياة. ندم لأنه في سبيل كسب المال كاد يخسر روحه. ندم عشيق كثيراً لكنه كتم ندمه وعضّ على جراح روحه مكابراً. ولقد دمعت عينه مرات كثيرة خلال قراءته تلك الاعترافات المليئة بابتهالات وتوسّلات صادقة إلى الله بطلب الغفران. ومن تلك المرات حين ترجم مقطعاً يتحدث فيه القديس عن أبيه الوثني الفقير. حسب ما جاء في **كتاب الاعترافات** حاول ذلك الوثني، زوج المرأة المسيحية التقية مونيكا، قدر الإمكان، أن ينفق على ولده الفتى أوغسطين ويدفع له كل ما يلزمه للدراسة: "من ذا الذي لا يبجّل والدي؟ لقد استطاع أن ينفحني من المال لأجل الدراسة ما عجز عنه كثيرٌ من الآباء الذين كانوا أكثر غنىً وقدرةً منه". كان مدهشاً حقاً أن يكيل قدّيسٌ مسيحيّ وعالمُ لاهوتٍ مبرِّزٌ ذاك المديح لرجلٍ وثني لم يؤمن ولم يتعمّد إلا في أواخر حياته. أعجب عشيقاً حديثُ القديس الفيلسوف حول انقطاعه عن الدراسة وعودته من مدينة مداوروش (ماداورا) إلى بلدته "طاغاست" بسبب فقر والده ثم سفره إلى مدينة قرطاج وهو ما زال فتىً يانعاً بعد أن تحسّنت الأمور لدراسة علم البيان لدى أساتذة مهرة ذاع صيتهم في تلك الأرجاء. رأى في ذلك الكتاب سلواناً كبيراً وعقد العزم على أن يدوّن هو أيضاً سيرته بدءاً من سني الطفولة في حلب وأنطاكية وقرية ميدان ثم سفره إلى روما بعد أن ينتهي من تعريب ما لديه من كتب. كانت هناك كتبٌ كثيرة أخرى انكبّ على

ترجمتها وكأنه يستدرك تقصيره ويكفِّر بذلك عن ذنبه في عقوق والديه اللذين تركهما ولم يسأل عن ما آل إليه أمرهما بعد رحيله إلا في رسالة أو رسالتين يتيمتين. آلمه جداً أنه ترك دينه حين كان فتىً غراً، ولكنه لم يصبح مسيحياً تقياً أيضاً، فلم يفعل لوالديه كما ينبغي حتى لمسيحيٍّ بارّ أن يفعل. أرّقته هذه الأمور كثيراً، ولكي يتخلّص من أوجاع الذكرى وآلام الندم وصل ليله بنهاره يترجم ويترجم حتى كلَّت أصابعه ولم يعد يقوى على أن يضمّ القلم بها.

وخلال الأعوام الخمسة تلك، وبعد أن ترجم كتباً كثيرة، صار كلّما أراد أن يرتاح من تعب الترجمة والتأليف، وكلّما راقَ الجو وصفا، يخرج من حجرته الصغيرة ويمشي متمهّلاً على طريقٍ مستقيمة تحفّ بها أشجار الصفصاف، فيتّجه إلى بوابة أوستينيس. هناك كان يرى كيف أن تلك البوابة، إلى جانب بوابات أخرى كثيرة، تستقبل زوار روما من المعمورة كلها. كان ينظر من خلال تلك البوابة، التي ينتصب بجانبها هرمٌ عرَّشت عليه بعض النباتات، إلى الدرب المتعرّجة المتّجهة إلى الميناء، فيتذكّر ساعة وصوله ووصول رفاقه بصحبة الراهب الماروني بولس عبد النور إلى تلك المدينة قبل أعوام كثيرة. تعوّد أن يجلس على صخرة قرب شجرة زيتونٍ هرمة، رآها أول مرة حين جاء إلى روما، وكانت يومذاك زيتونةً فتية تشبهه، ومن هناك صار يحدّق في البوابة التي تستقبل الوافدين من كل العالم، فيزفر طويلاً ثم يعود إلى الحجرة لينكبّ على أوراقه البيضاء يترجم حتى يتأخر الليل فيأوي إلى فراشه وحيداً ويصغي إلى رياح الحنين التي بدأت تهبّ على روحه من جهة بوابة أوستينيس.

لقد كان عشيق نباتاً جيء ببذرته من الشرق فزُرعت في تربة الغرب وأينعت ثمراً لا يشبه إلاّ نفسه. لم يعد يربطه بالبلاد التي قدم منها أيُّ رابط، حتى إنه كان يتأمل وجهه أحياناً في تلك الشظية الباقية من مرآة أمه فيرى نفسه إنساناً آخر غيرَ ذاك الذي جاء قبل أعوامٍ طويلة إلى روما برفقة فتيانٍ في مثل عمره. لكنه لم يصبح مثل أحدٍ من سكان روما أيضاً، لم يشعر أبداً بالانتماء إلى تلك المدينة العظيمة ولا إلى شوارعها وأشجارها وسمائها وأرضها وطيورها. أما المسيحية التي اعتنقها فلم تنفذ إلى أعماق قلبه ولم تؤثّر فيه طيلة كل تلك السنوات الطويلة. ربما حضر في حياته كلها عظاتٍ معدودات أيام الآحاد ليس أكثر. لكنه، مع ذلك، استطاب المقام في روما وأحبها كثيراً وبدا أنه سيبقى فيها حتى يموت بعيداً عن أهله غريباً عن وطنه. كان سيهب جسده لتراب روما لو لم يأتِ ذلك اليوم من حزيران عام ١٧٦٢. ففي ذلك اليوم القائظ التقى عشيق راهبةً عجوز بالقرب من بوابة أوستينيس. كانت متّشحةً بثوبٍ رمادي وتتوكأ على عصا غليظة وتتفيّأ ظلال شجرة صنوبر شامخة هناك. رآها عشيق وهي تهزّ رأسها وتحدّق صامتةً في عربةٍ قادمة من ميناء أوستينيا. كانت العربة التي تباطأت في سيرها حين اقتربت من البوابة تحمل فتية مارونيين من الشرق يصحبهم راهبٌ يتدلّى على صدره صليبٌ ذهبيّ يلمع في ضوء الشمس.

***

تذكّر المترجم محمد عشيق الدين الأنطاكي كل تلك الحياة الحافلة

بالسعادة والشقاء صعوداً وهبوطاً وهو جالس على مدى ساعتين على كرسيه تحت شجرة الكينا الكبيرة وسط فناء داره الفسيحة يستمتع بدفء الشمس التي جاد بها ذلك النهار اللطيف من شباط. كان يحتسي الكأس الثالثة من مغليّ النعناع حين وصل به زورق الذاكرة إلى شاطئ صيف عام ١٧٦٢. أغمض عينيه وضغط على صدغيه بيده اليسرى لبرهة قصيرة ثم غاص عميقاً في بحر الذاكرة المشتعلة بحوادث لا يمكن حصرها فرأى فصولاً أخرى من حياته السابقة بكل تفاصيلها الأليمة والمبهجة مثل أيقونةٍ على جدار كنيسة.

عند الظهيرة نهض من كرسيه متثاقلاً بعد أن غفا لبعض الوقت. تجوّل قليلاً في الدار الفسيحة يعاين شجيرات الورد وبعض المزروعات، كالبصل والنعناع والفجل، التي زرعتها الخادمات حول المطبخ. أخيراً عاد وجلس من جديد على كرسيه وطلب الغداء، فجاءت الخادمة زينب ذات الوشاح الأحمر بحساءَ عدسٍ ورغيف خبزٍ طازج مع فخذي دجاجة مشوية.

تناول عشيق غداءه ثم قام وذهب إلى حجرته الدافئة وأخرج من سَفَطٍ في خزانة الكتب كناشتين تضمان ترجمته لاعترافات القديس أوغسطين فطالع فيهما قليلاً ثم تمدّد على فراشه يتأمل السقف. تذكّر، وهو يحدّق في العواميد الممددة كسطورٍ مستقيمة، فصولاً أخرى من حياته وتمنّى لو أنه يمتلك جرأة القديس في الحديث عن مخازيه وما ارتكبه من موبقات يحنّ إليها أحياناً حتى غفا من جديد.

قبل أن تغرب الشمس بقليل عاد يونس من أنطاكية، وحين دخل غرفة المترجم وجده مستغرقاً في مطالعة مخطوطات يراها لأول مرة.

- جئت يا يونس! تفضل تفضل.

قال عشيق، وهو يضع من يده آخر كتاب من الكتب التي ترجمها إلى العربية في روما، وأشار إلى مكانٍ بجانبه.

وضع يونس ما في يده من أوراق وعدة كتابة ونباتات مجفّفة للتداوي ووقف ينتظر ما يأمره به مولاه.

- خذ الأعشاب للخادمات وآتنا ببعض الحطب ليروي لنا الموقد حكايته اللاهبة.

- وهل ستروي الليلة شيئاً يا مولاي؟

- كلا يا يونس. أظنك تعبت من السفر وأرى أن ترتاح لنبدأ غداً من جديد.

- إن شئت حبَّرنا بعض القراطيس.

ضحك المترجم عشيق. أشفق على الفتى يونس من الإرهاق وعلم في الوقت نفسه أنه متلهّف لسماع الحكايات. لقد كان يعلم أن الحكاية التي لم تنتهِ بعد تؤرّق راويها والمنصتَ إليها بالدرجة نفسها، فتوجّه إليه بحنان وقال:

- لا بأس يا بني. سأملي عليك ورقةً أو ورقتين، ثم تذهب لترتاح. هيا، فلتطبخ لك الخادمات شيئاً تتناوله إن كنت جائعاً!

- لقد تناولت الطعام في الطريق. اشتريت من أنطاكية خبزاً حلواً عليه سمسم.

ردّ يونس ثم خرج ليعود بعد دقائق ومعه قليلٌ من الحطب. أشعل الموقد ثم جلس بهدوء ينتظر اشتعال الذاكرة.

شبك عشيق أصابع يديه وأغمض عينيه وقال بصوتٍ واهن:

- سأملي عليك الليلة حكاية سنوات كثيرة وسأختصرها لئلا أزيدك إرهاقاً فوق إرهاق. دوِّن يا بني:

نجح القسّ لورنزو في إقناعي باعتناق المسيحية مستغلاً وحدتي وحزني وكوني فتىً غرّاً وكذلك بعدي عن وطني وأهلي، لكنّي لم أندم على ذلك، حتى إنني في البداية وجدت متعةً كبيرة إذ شعرت بتغيّرٍ عظيم طال حياتي وهزّ أركاني ولمس حوافَّ روحي، فواظبت على الصلوات في الكنيسة وأحببت روما كما لو أنني ولدت وترعرعت فيها وأنها موطن آبائي وأجدادي. وحين عاد رفاقي سابا وجرجس وشمعون إلى بلدانهم رفضتُ العودة معهم وآثرت البقاء في روما.

بعد ذلك أصبحتُ معلّماً للعربية في مدرسة أشرف عليها القسّ لورنزو بنفسه قبل أن يصبح أسقفاً ويرحل إلى الصين للتبشير بالكثلكة. بقيت في تلك المدرسة سنوات عديدة أعلّم الرهبان الإيطاليين اللغة العربية، ثم تزوجت بفتاة لم أُرزق منها بولد حتى ماتت قبل رحيلي عن روما بأعوام قلائل. كانت تسمّى آبيلينا دونّا، وكان والدها تاجراً أشركني في تجارته حتى مات فورثه أقرباؤه لأن أولاده الذكور كانوا قد تركوا بلادهم وسافروا عبر البحار إلى بلاد بعيدة ولم يعد أحد يعرف أين صاروا.

ولمّا وجدت نفسي بلا عمل، وانتبهتُ إلى أن عمري

يكاد يذهب سدىً، وأنني عققت والدي رحمه الله، قمتُ بترجمة كتب عديدة في آخر خمسة أعوام هناك. وكنت سأبقى في روما لولا ذلك اليوم من الصيف الفائت الذي التقيت فيه راهبةً غريبة الأطوار عند بوابة أوستينيس. تلك الراهبة التي انجذبتُ صوبها بدافعٍ غريب، وما جرى بعد ذلك من رؤيتي لفتيان قادمين من الشرق بصحبة أحد الرهبان، كل ذلك قلب حياتي وأفكاري رأساً على عقب وتركني عدة أيام مثل ريشةٍ نفخ عليها ماردٌ فصارت تتقلّب في الهواء لا تعرف أين تستقر.

لا أدري أية ريح ساقت تلك الغيمة إلى سمائي لتمطر فوق روحي الضالة؟ لا أدري؟ ربما أرسلها الله تعالى إلي لتكتمل حكايتي هناك حيث بدأت.

كان لكلمات تلك الراهبة سحرٌ لم أجده في كلام أيٍّ من بني آدم اللهم إلا ما سمعته من الراهب بولس وما كان يرويه عن الدرويش سراج وأحاديث القس لوسيانو وبعض ما قرأته من كتب القديسين والمتصوفة. لم يكن كلامها الهادئ الحنون سوى عاصفة رمت بي في مهبّها وجعلتني أكثر قلقاً من ماءٍ في قِدْرٍ تحته نيرانٌ تضطرم. أما ما جرى لي بعد اللقاء بها واختفائها فهو أغرب من الخيال ولا يجد المرء له مثلاً إلا في الحكايات.

سكت المترجم بعد ذلك وأخذ يحدّق في الموقد. بقي فترةً هكذا ثم قال بحزن:

- يا يونس، يكفي هذا. أشعر بوهنٍ في صدري يمنعني من الكلام. سنكمل الحكاية غداً صباحاً.

- أمرك مولاي. لكن هل تسمح لي بسؤال؟

- تفضّل يا بني.

- لم أعهدك، يا مولاي، تقفز على السنوات وتتجاوز تفاصيل الحكاية هكذا. فيما مضى كنا ندوّن واقعةً صغيرة جرت لدقائق معدودات في صفحة كاملة أو ربما صفحتين وثلاث صفحات. أما الليلة فقد أمليتَ علي أحداث سنوات كثيرة في أقلّ من ورقة.

نظر الشيخ إلى الفتى اللجوج محاولاً أن يخفي قليلاً من الغضب جاش به صدره وقال:

- لا تُقاس الحكايات بطولها وقصرها ولا بتفاصيلها يا يونس. قد تكون الحكايات التي لا تروى أجمل بكثير من تلك التي نُفرد لها الصفحات الطوال. وربما لو رويتُ لك كل ما جرى بتفصيلٍ يشبه ما قمت به في الأيام الماضية لما انتهينا. ثم من يقدر على أن يروي الحكاية كلها؟ أتراني قادراً على أن أحدّثك عمّا جرى لجرجس المصري مثلاً؟ قد يكون الآن أسقفاً يرعى خراف كنائس عديدة في مصر. بل ربما تزوّج وأنجب أطفالاً. ماذا يفعل سابا الزجّال اللبناني ذو الصوت الحسن؟ أمات في معركة أم صار مترجماً في بيروت وصار له بيت وأسرة؟ أتراني أستطيع أن أحدثك، يا يونس، عن شمعون النصيبيني وما آل إليه أمره؟ أم أنني أقدر أن أسرد عليك كيف أن الراهب الماروني الطيب غرق في البحر؟ كيف ابتلعته الأمواج وأية صلوات كان يتمتم بها ساعة النزع الأخير؟

سكت الشيخ هنيهةً ثم خفض صوته وقال بنبرةٍ فيها حنانٌ كثير كأنه ندم على نبرته السابقة:

- لكنني أقول لك يا يونس إنني بحت بالحكايات كلها لشجرة الكينا، وهي ستفشيها للعصافير، والعصافير للسماء، والسماء للغيم، والغيم للأرض. ثم ستنبت الحكاية من الأرض كما ينمو الحَبَقُ على ضفاف السواقي. ستقرأها يوماً حين تمرّ بجانب أية ساقية نما الحبق حولها. أرأيت الضباب الذي لمحته قبل قليل من الباب حين دخلتَ؟ أرأيت كيف يحجب عن الأنظار حكاية الأرض وما عليها؟ إنه سينقشع بلا شك فتظهر الأشياء على حقيقتها. كذلك حكايتي لهذه الليلة يا يونس، أعلم أن الضباب قد لفَّ فصولها لكنه سينقشع؛ سينقشع ذات يوم يا ولدي.

نظر يونس المتعب من سفر أنطاكية باندهاشٍ عظيم إلى المترجم. حسبه يهذي كعادة من يدركه الخرف من المسنِّين. هو لم يقتنع بذلك التفسير الغامض الملغز بل ثار لديه فضولٌ عظيم لمعرفة التفاصيل الصغيرة، لكنه آثر السكوت فلم يعقّب حتى ولو بنصف كلمة، وحين وضع كل شيء في مكانه مضى إلى غرفته يرمّم بنفسه فصول تلك الحكاية بحنكة البنّائين المهرة. أما المترجم عشيق، الذي فرح لأنه تخلّص أخيراً من لجاجة الفتى الأرناؤوطي يونس، فقد غاص عميقاً في وحول ذاكرته وتفاصيل حياته السابقة حتى أدركه النوم فنام.

الفصل السادس

الراهبة الجنوية

صباح اليوم التالي لفَّ ضبابٌ كثيف قرية ميدانَ من أقصاها إلى أقصاها. بدا الأمر كما لو أن القرية تحلم، ولاحت الأشجار من خلال غلالة رقيقة بيضاء وكأنها أشباح تتراقص بتثاقل. اختفت نهائياً الهضبة المطلة على القرية من الجنوب الشرقي والمكسوة منذ الأزل بأشجار الصنوبر والبلوط. لم يكن ثمة في تلك الأجواء حتى طائرٌ وحيد يُهدي حفيف جناحيه لإشراقة الشمس التي حجبتها تلك الكثافةُ الباردة البيضاء. غابت حتى الأصوات المعهودة كل صباح، فلا كلاب تعوي ولا عصافير تزقزق ولا أطفال يزعقون وهم يلعبون في الأزقة ولا جلبة للخادمات إذ يرحن ويجئن في باحة الدار.

وحده المترجم خرق هدوء ذلك الصباح المضبَّب وبدَّد رهبته حين نهض باكراً وجلب بضع ورقات صار يدوّن عليها بأصابع مرتجفة حكايته مع ساقية الحانة آدونيا الكورسيكية. كان قد حلم بها فرآها تسير معه على ضفة أرنو في فلورنسة وتعبر معه الجسور

وتركض في الحدائق فيقطف لها الزهور ويعقدها قلاداتٍ وتيجاناً يزيّن بها صدرها ورأسها. كانت آدونيا تقبّله في الحلم قبلات حميمة أمام أناسٍ متجمهرين في ساحة كنيسة سانتو سبيريتو فيما هو يحضنها بقوة وجنون.

لم تمضِ ساعة حتى كتب الحكاية كلها حسب ما أسعفته به الذاكرة في ورقاتٍ ثلاث ثم وضعها بجانب ورقاته التي دوّن عليها قبل أيام قصته مع حبيبته إستر اليهودية ولم يشأ أن يطلع عليها الفتى يونس.

بعد قليل استيقظ يونس أيضاً من حلم جميل.

رأى أنه في بغداد يعبر جسراً من جهة الرصافة إلى جهة الكرخ ثم يمشي في زقاقٍ ضيق مظلم قليلاً، وفجأةً ينفتح باب وتظهر فتاة حلوة بجديلتين ذهبيتين ووشاح أحمر وترتدي ثوباً بنفسجياً شفافاً يظهر ساقيها وقسماً من فخذيها. دعته الفتاة بإشارةٍ من يدها وغمزةٍ غنجٍ للدخول. لم يكن لديه مجال للتفكير فتبعها إلى الداخل. أمسكتْ الفتاة بيده وسارت به في ممرٍّ طويل تحيط بجانبيه شتلات قرنفل وورد جوري وريحان يانع في أصص من الفخار. وصلا إلى غرفة في نهاية الممر فأدخلته إليها وأصعدته إلى سرير تعبق منه روائح البخور الزكية. نزعت الفتاة الحلوة ثوبها ومدّت يدها تنزع عنه ملابسه أيضاً. عرّته الفتاة تماماً وأضجعته بجانبها. كان يونس يخجل قليلاً لكنها أزالت كل خجله حين صارت تقبّله في شفتيه وأنحاء كثيرة من جسمه وهي تشهق وتتكلّم كلمات تقطر شبقاً وشهوة. اختفت الفتاة اللذيذة فجأةً ثم وجد يونس نفسه عند شجرة نخيل يضع التمور

في قفّة ويسلّمها لأبيه الذي كان يعطيه حفنةً من نوى التمر ويبتسم مشيراً إلى فتاة حلوة بجديلتين ذهبيتين ووشاحٍ أحمر تعين صاعوداً في جمع التمور.

وكم فوجئ يونس حين جاءت الخادمة زينب ذات الوشاح الأحمر إلى حجرته بعد أن استيقظ من حلمه الجميل وطلبت منه أن يأخذ فطور المترجم إليه. كانت تلك الخادمة هي نفسها التي شاكسته قبل أيام عندما بحث عن المترجم عشيق ودارت بينهما ملاسنة حادة. ذلك اليوم كان مزاج الخادمة رائقاً. كانت تبتسم له ورأى فيها فتاة حلمه الجميل ذاك فابتسم لها بدوره وخفق قلبه ثم نهض وحمل طبق الفطور الذي وضعته زينب بالقرب من العتبة ودخل به إلى مولاه. كانت الغرفة دافئة والموقد مشتعلاً يهدر بنارٍ وليدة توّاً. علَتْ وجهَ الشيخ ابتسامةُ سعادةٍ غامرة حين رأى يونس يحمل الفطور إليه:

- تفضّل يا يونس. سنتناول الفطور ثم ندوّن ما تبقّى من الكتاب الثاني، وربما ننهيه هذا اليوم.

- عمت صباحاً مولاي. الضباب كثيف في الخارج.

- عمت صباحاً يا يونس. هذا ضبابُ ما ندوّنه ونحلم به. هل تفطر معي؟

- شكراً يا مولاي. سأغسل وجهي ويديَّ ثم آتيك إن أذنت لي.

- على بركة الله.

لم تمضِ ربع ساعة حتى عاد يونس نشيطاً متحفزاً تلمع في عينيه شهوة التدوين. سُرَّ الشيخ لهذا النشاط فقال ضاحكاً:

- هل حلمت بفراشات يا يونس؟ أراك نشيطاً كفراشة في الحقل.

خجل يونس ولم يردّ. هدأت حركته وأحضر عدة الكتابة بصمت.

لاحظ الشيخ انقلاب حالة يونس وعرف أنه خجل فأراد أن يطيّب خاطره وقال:

- سنزوجك فراشةً من فراشات المطبخ؛ فراشة بوشاح أحمر. هيه؟ ماذا قلت؟

ابتسم يونس وسكت. تعجّب كثيراً من أمر الشيخ. ترى أكان يراقب حركاته وأحلامه؟ كيف لاحظ أنه بدأ يهتم بالخادمة المشاكسة ذات الوشاح الأحمر؟ أم أنه قال ذلك اعتباطاً؟ ترك البحث عن الأجوبة وانحنى مستعداً للكتابة، فيما تنحنح الشيخ وقال بحبور: دوّن يا بني. دون. لم يبقَ إلا القليل لننتهي من الحكايات كلها. دوّن:

> كانت الراهبة التي رأيتها في ذلك اليوم من صيف السنة الفائتة عجوزاً في حدود الثمانين. لم أجدها قبل ذلك في روما، وربما وجدتها فلم أنتبه إليها، فما أكثر الراهبات في تلك البلاد. كنت أرى راهبات كثيرات في كل مكان فلا أهتم بهن. لكن جذبني إلى تلك الراهبة سحرٌ غامض فتقدمت إليها بهدوء. كنت منقبض النفس كثيراً وشعرت أنني سأخفّف عن نفسي قليلاً إن اجتمعت بها وتبادلت الحديث معها. ألقيت عليها التحية فردّت دون أن تنظر إلي:
>
> - تفضل اجلس حماك الرب يا أخي.
>
> جلستُ بقربها وصمتُّ مثلها.
>
> أصغينا معاً لثرثرة نهر التيبر القادمة من يميننا.

قالت لي بعد موجة صمت: تبدو غريباً عن هذه الأرض.

دهشت. سألتها: كيف أبدو غريباً؟

قالت: تحيط بك هالة الغرباء. أنت نبتة غريبة.

ثم ابتسمت وقالت كأنها تواسيني: لكن لا بأس يا أخي فأنا أيضاً غريبة مثلك. أنا من جنوة.

حكت لي تلك الراهبة الجنوية أنها شهدت وهي طفلة صغيرة كيف أن الفرنسيين قصفوا جنوة بالمدافع من جهة البحر. "اهتزت الكنائس التي احتمينا بها"، قالت وهي تحدق في البوابة ثم أردفت: "واهتزّ عرش الإيمان في قلوب الكثيرين أيضاً". صمتت لتنظر طويلاً في عيني وترى وقع كلامها. وحين رأتني صامتاً لا أجيب، قالت وشبه ابتسامة على فمها: "نعم يا أخي. إن الحروب تزعزع العقائد، وإن المَدافع لا تهدم كنائس الرب فقط بل قلوبَ خرافه أيضاً". بقيتُ على صمتي فواصلتْ حديثها قائلةً: "حين اشتدّ القصف رأى أبي أن يخرج بنا من الجمهورية التي أصبحت هدفاً لأطماع الفرنسيين. كانت السفن الحربية تحيط بها من جهة البحر كأشداق الحيتان تطلق حممها والدخان يتصاعد من الخرائب في كل مكان. أتذكر أن أبي قال لأمي وكلاهما يرتعد: 'جنوة تنهار. إنني أشم رائحة موت هذه الجمهورية الهرمة كما أشمّ رائحة جيفة. علينا أن ننجو

بجلودنا يا امرأة'. كان هدف أبي، كما علمنا فيما بعد، أن ينقذ ثرواته وأمواله التي كدّسها خلال تجارة العبيد وينجو بها لا أن ننجو نحن بجلودنا. بعد أيام عديدة هدأت المدافع وسكن القصف وفكّت السفن الحربية حصارها، فحملنا ما نستطيع حمله من أمتعتنا وتوجهنا إلى جزيرة كورسيكا. مات أبي قهراً، وتنازع إخوتي على التركة الضخمة، أما أمي فقد أرادت أن تستبدّ بكل شيء وصارت تشارك إخوتي نزاعاتهم فتعين هذا على ذاك. كنت البنت الوحيدة في العائلة ولم أكن أنزع إلى المال منذ طفولتي. كنت ميّالة إلى القراءة والموسيقى أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا. كرهت الرجال حين رأيتهم يتسبّبون في الحروب ويقودون السفن عبر البحار لقصف الموانئ ويقودون الجيوش الجرارة إلى ساحات الموت. كرهت الرجال حين رأيت أبي يتاجر بالعبيد وينمي ثروته على حساب دموع أولئك المساكين. سمعته ذات مرة يروي لأمي كم ربح من صفقة بيع عبيد اصطادهم الألمان البروسيون في غرب أفريقيا. رأيت وجهه مستبشراً وهو يعدّ فلوريناته الذهبية ويصغي لخشخشة الذهب بمتعة فائقة. أما أنا فكنت أسمع نواح العبيد من خشخشة تلك الفلورينات. وبالرغم من أنني كنت طفلةً صغيرة إلا أنني فهمت القضايا الكبرى في عالم الكبار. عرفت أن الشر ذَكَرٌ

فعزفت عن الزواج ونذرت نفسي لكنيسة الرب. لم أعد أسأل عن أهل بيتي، لم أعد أسأل عن إخوتي وأمي الذين خاضوا حروبهم من أجل تركة أبي. كرهت أمي أيضاً حين رأيتها تدير دفة المعركة بين إخوتي الذئاب. تركتهم وآثرت أن أقضي كل وقتي عند الراهبات نتلو آيات الرب ونخدم كنيسته في إحدى قرى الجزيرة. لكن الحرب قامت من جديد. مرةً أخرى هاج الرجال وتداعوا للموت والخراب. ولأن أهل جزيرة كورسيكا ثاروا على الجنويين، فقد رأوا في كل جنوي عدواً. لم أستطع البقاء بين أمواج بحر الكراهية التي أحاطت بي من كل جانب فغادرت الجزيرة قبل أكثر من ثلاثين عاماً. ومع مغادرتي للجزيرة ووصولي إلى البر الإيطالي غادرت حياة الرهبنة المزيّفة أيضاً. لم أعد أهتم بطقوس الراهبات ولا صلواتهن ولا عالمهن الذي جعلن له حدوداً ونظماً وقواعد صارمة. أدركت أن لا قواعد للإيمان. لقد اكتشفت في حياة الرهبنة بشاعات وقباحات كثيرة وقلت: أيعقل أن يكون هذا كله باسم الرب؟ إن معرفة الرب يا أخي لا يحدّها قانون ولا يحيط بها دين وسلك كهنوت ونظم صارمة دقيقة. الرب أكبر من كل ما يدعونه. لقد رأيت أن الرهبانية الحقة ليست أن يقبع المرء بين جدران دير ويقضي نهاره في إنشاد الترانيم وليله في إيقاد الشموع وإضاءة السرج من

الزيت المقدس. إن الله هناك يا أخي؛ هناك حيث لا ينتبه إليه الناس، في الأكواخ الحقيرة والبيوت الواطئة؛ هناك عند الثكالى وأرامل حروب الرجال؛ هناك عند الأيتام يواسيهم ويمسح دموعهم ويبكي معهم ويفكّر ملياً في هذا الإنسان الذي خلقه على صورته. أيعقل أن يخلق إلهٌ حكيم وحوشاً على صورته؟ هل ربنا وحش يا أخي؟".

تحدثت الراهبة كثيراً. بدا لي أنها توأم نهر التيبر الذي كان يثرثر على مقربةٍ منا، لكن كلامها كان يختلف عن ثرثرة توأمها المائي. كان لحديثها نكهة الحكمة ممزوجةً بالهرطقة. أدركت أنها لا تؤمن بكثيرٍ مما في غضون الكتاب المقدس. قالت لي: "لقد عرفت ربي بقلبي وليس بهذه الأساطير التي تصوّره سريع الغضب مدمّراً. ما الفرق، يا أخي، بين آلهة الوثنيين وبين إله الكتاب المقدس؟ آلهة الوثنيين يثيرون الزوابع ليقطعوا الطريق على أحد البحّارة، وإله الكتاب المقدس يغضب لأتفه الأسباب؟ إله الكتاب المقدس، يا أخي، خلقناه نحن، نحن البشر الفانون الذين صرنا نقرأ من ذلك الكتاب ما يوافق هوانا ويناسب نوازعنا الشريرة. وما أكثر ما فيه من آيات تدعو للقتل والتدمير حتى لكأن قائداً من جيش البرابرة كتبها! أتعلم كم من دماء سُفكت في أوربا، شمالاً حيث ادّعى كل فريق أن

الربَّ مفتاحٌ في جيبه وأن الحقيقةَ حمارٌ مربوطٌ إلى باب كنيسته؟ أتعلم كل هذه الأمور يا أخي الغريب؟ لقد ذبح المسيحيون من المسيحيين وباسم الكنيسة والرب أكثر مما ذبح منهم المسلمون العثمانيون باسم إلههم. كل البشر يقحمون الله في حروبهم ويلصقون به قذاراتهم ويلطّخون اسمه بالدم. إن الرب محبة. وإن المحبة تمحو الكراهية ولا تغذيها. وكان الناس سيبقون متحابين بفطرتهم التي فطرهم الله عليها لولا أن ابن الإنسان اخترع النِّحَلَ والمذاهب ليسقي بها نبتة الكراهية الشريرة".

ولمّا سألتها: "أليس كل ما يحدث بمشئية الرب وأمره؟" التفتت إليَّ حتى رأيتُ وجهها الكئيب النحيل ونظرات عينيها اللامعتين الحزينتين. حدقت فيّ قليلاً ثم قالت: "إلى متى يحيلُ ابن الإنسان عجزه وخطاياه ودنس روحه إلى الرب؟ إلى متى يتّخذ بنو آدم من الرب الطاهر النقي مشجباً لثيابهم القذرة؟ قل لي إلى متى؟".

فكّرت طويلاً في كلام الراهبة الجنوية العجوز وغصت في دقائقه عميقاً. تذكّرت كيف أن راهباً يسوعياً أخرجني من الإسلام قبل عشرات السنين وزيّن لي النصرانية وكرّه إليّ ديني بدعوى أنه دينٌ يدعو للقتل وسفك الدماء. وها هي الراهبة العجوز تنسف كل ما آمنتُ به على يد القس لورنزو اليسوعي. ها

هي تشوّش أفكاري وتأتيني بحجج لا أقدر على ردّها وتطيح بطمأنينتي. ها هي تؤكّد لي أنني ما تنقّلت إلاّ من ضلالٍ إلى ضلال. ها هي تدّعي أن المذاهب "من اختراع الإنسان ليسقي نبتة الكراهية". انتابني صداعٌ مفاجئ وشعرت أن رأسي أُلقي في قدر ماءٍ يغلي، بينما بقيت هي هادئة طوال الوقت وفي عينيها طمأنينة هائلة. كانت الطمأنينة شجرة زيتون تظللها بينما كنت أنا غيمةً تائهة تلهو بها رياح الشك، فسألتها في حيرةٍ ظاهرة: "ولكن، يا أختي، ألا يوجد مذهب حق؟ ألا يوجد دين يمثّل الرب وتعاليمه؟ أيليق بالرب أن يترك خرافه في البرية تنهشها الذئاب؟" فردّت دون أن تلتفت إلي: "ومن قال لك ذلك؟ لقد وهبك الرب أعظم ما يمكن أن يهبه إله لمخلوق. لقد وهبك العقل. إن العقل الذي تميز به بين هذا اللون وذاك لقادر على أن يميز بين الشر والخير أيضاً. أيحتاج الناس إلى نبيٍّ يقول لهم 'لا تقتلوا النفس البريئة' حتى يكفّوا عن القتل؟ أينبغي على الله أن يُعلّم البشر ألاّ يسرقوا فيتعلموا ذلك ويلتزموا بما تعلموه؟ أيحتاج فعل الخير إلى أنبياء ووعّاظ وكتب مقدسة؟ لقد منحنا الله آلةً نميز بها الخطأ والصواب وتركنا وشأننا يا أخي. الله أجلّ من أن ينزل من سماواته ليحمل سيفاً أو بندقية يقاتل بها في صف هذا أو ذاك".

لم أعرف بِمَ أجيب. كان ما أسمعه جديداً علي.

طوال عمري سمعت المواعظ المكرّرة حتى ملّتْها أذني. لكنني في ذلك اليوم سمعت صوتاً آخر انجذبت إليه وتأثرت به فالتزمت الصمت. إن الصمت وحده يعين المرء على التأمل وإعمال الفكر. صمتت هي أيضاً وظلت تحدق في ناحية الغرب حيث البوابة التي ينتصب على يمينها هرم جرجس. ولقد سمّيته هرم جرجس تيّمناً برفيقي المصري الذي قفز من العربة حين اقتربنا من روما قبل خمسين عاماً وصار يطوف به كالمجنون.

من بعيد ظهرت عربة قادمة من جهة الميناء. لم أكن أعلم من يكون داخل العربة ولا إلى أين تمضي، فما أكثر العربات التي تدخل روما وتخرج منها من كل بوابة. لكنني حين شاهدت تلك العربة قادمةً من جهة الميناء تذكّرت أول يوم لي في روما فقلت:

– أتعلمين أيتها الأخت أنني جئت قبل أكثر من خمسين عاماً مع فتيان آخرين وبرفقة راهب ماروني على نفس هذا الدرب ونزلت في روما أتعلّم الإيطالية؟

سألتني مندهشة: ولم تذهب إلى بلادك منذ ذلك الوقت؟

– كلا يا أختي الراهبة. هكذا قدَّر الله.

– هكذا قدَّرتَ أنت. دع الله في عليائه يا أخي ولا تشركه في قراراتك الخاطئة. إنه لم يخلق هذا الرأس

بين كتفيك ليتسلّى. إنك لا تريد أن تفهم اليوم ما أقوله.

قالت ذلك بغضب ثم نهضت. نهضتُ أيضاً وهممت بأن أمشي بجانبها، فقالت وهي تضع عكّازها أمام قدمي:

- لا تتبعني الآن. أنا هناك خارج الأسوار على طريق الميناء. إن رأيت أنك بحاجة لمزيدٍ من اليقين فما عليك إلا أن تخرج من روما ثم تمشي ألف خطوة وبعدها تنحرف يساراً فترى كوخاً قريباً من زيتونة هرمة. كفاك اليوم ما سمعت إن كانت لك أذنان تعيان.

ومضت بهدوء.

انقشع الضباب عند الظهيرة وانكفأ إلى الأعالي فظهرت معالم باحة الدار وصارت تنضح ألقاً. تبع ذلك سطوعُ شمسٍ دافئة أضاءت قرية ميدانَ فأعلنت الطيور ابتهاجها بمهرجان الضوءِ وضجّت الأنحاء بأصواتٍ أنيسة.

كانَ التعب قد بلغ بيونس مبلغاً عظيماً لكنه استحى أن يُظهر ذلك حتى قال عشيق:

- يبدو أنني استرسلت كثيراً يا يونس. اقتضت الحال ذلك.

- إن شئت استرحت يا مولاي.

فهم المترجم من لهجة يونس أن التدوين أرهقه فقال مازحاً:

- نستريح بشرط أن تروي ما تبقّى من الحكاية وتدوّنها أيضاً.

- كيف ذاك يا سيدي؟

- لقد سمعت ما فيه الكفاية ودوّنته بيدك، ولا شك أنك الآن

صرت تعرف كيف ستنتهي؟

– ولكنها حياةٌ وليست حكايةً يا مولاي؟

– وهل لو كانت حكاية كنت ستكملها عني؟

– كنت سأتخيّل النهاية المناسبة على الأغلب؟

– هب أنّ ما رويته لك حكايةٌ طويلة، فهات أعلمني بنهايتها المناسبة يا يونس!

وضع يونس القلم من يده وحدّق في الشيخ مستغرباً إلحاحه على زجّه في حكايته. لم يطل به التفكير كثيراً بل سرعان ما اتّكأ على بديهته وقال مبتسماً بخبث:

– النهاية تبدو لي يا مولاي هكذا: ألقتك الحيرة بين براثن الندم.

صفّق المترجم عشيق طرباً ثم نهض من مكانه وأتى صوب يونس منحنياً عليه مقبّلاً رأسه. قال والرضا يلمع في عينيه:

– أحسنت يا يونس، أحسنت. والله لم تغادر الحقيقة قيد شعرة. لقد قذفتني الراهبة الجنوية العجوز في بحيرة الحيرة، ثم ألقتني الحيرة بين براثن الندم!

– وأعادت رياح الشوق سفينتك إلى بلادك يا مولاي!

– أواه! يا لبلاغتك وفهمك أيها الفتى!

طرب يونس لهذا الإطراء فكاد يخفي رأسه بين كتفيه. لم يعد يتكلم بل انتظر ما سيقوله الشيخ الذي صار يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، يتوقف قليلاً عند الموقد ثم يخطو نحو النافذة فيطلّ منها على ما وهبته الشمس من نور غمر فناء الدار ككساءٍ ذهبي.

– فلتذهب الآن يا يونس. مرْ الطاهية فلتحضر لنا الغداء. سنتناول

الغداء معاً ونكتب بقية الحكاية لهذا اليوم قبل أن آخذ قيلولتي وتستريح أنت قليلاً. هيا يا بني.

لم يجب يونس بشيء. خرج بعد أن ضمّ أقلامه وطوى الأوراق التي كتب فيها ذلك الصباح. كان الجو رائقاً والخادمات الأربع مشغولات بأعمالٍ شتّى في الباحة الفسيحة. طفقت خادمةٌ تسقي النعناع، وراحت ثانية تقطف البصل والفجل الناميين حول شجرة الكينا. كانت الخادمة الثالثة تكنس الدروب الصغيرة التي رسمتها الأقدام وهي تذهب من غرفة إلى أخرى وتتجول في باحة الدار.

توجّه يونس إلى المطبخ دون أن يلقي بالاً إلى من في الخارج من الخادمات، وحين ولج ظلمة المطبخ سمع شهقةً عذراءَ دلَّت على أنه فاجأ أحداً ما هناك. طفحت تلك الشهقة بالأنوثة فخفق قلب يونس وسرى في بدنه خدرٌ لذيذ كالذي يصيب المرء حين يقفز من شاهق. وما إن مضت برهةٌ قصيرة حتى ظهرت في عتمة المطبخ تلك الخادمة بوشاحها الأحمر وبيدها مقلاة كبيرة. وضعت الخادمة زينب تلك المقلاة من يدها ثم رفعتها من جديد وعلقتها إلى مسمار في الحائط وتوجهت مبتسمةً صوب يونس الذي تسمّر في مكانه. اقتربت الخادمة أكثر حتى التصق جسدها البضّ بجسد الفتى النحيل ثم أمسكت به من رأسه وصارت تقبّله في فمه قبلاتٍ ساخنة. لفّت عليه زينب ذراعيها وكأنها تريد أن تنصهر فيه وصارت تلهث في أذنه وتهمس له أنها تحبه.

عانقها يونس أيضاً. لم يجد إلاّ ويداه تحيطان بردفيها المكتنزين وفمه على فمها وصدره يضغط على نهدين دافئين. كانت تلك

الحركة قد فاجأته وظنّ أنه يستعيد حلم ليلة البارحة فلم يتكلّم، لكن زينب، التي نزعت وشاحها الأحمر ورمته بجانب أحد القدور قبل أن تبدأ عاصفة القبل، قالت له برقة: "أحبك يا شاب. أحبك أيها الوسيم الغبي. أحبك يا يونس الغريب". ذهل يونس من جرأة تلك الفتاة. لم يجب بل اكتفى بالصمت مع ابتسامةٍ خجلى جعلت وجهه مرجاً من شقائق.

سمع الاثنان جلبة الطاهية فابتعد أحدهما عن الآخر وقالت زينب ليونس كلماتٍ على عجل: "سأزورك الليلة في غرفتك. لا تنم باكراً".

– أنت هنا يا يونس؟

قالت الطاهية وهي تدخل المطبخ، فأجابها على الفور:

– أجل أنا هنا. جئت لأنقل رغبة مولاي في إحضار الغداء. سآخذه إن كان حاضراً.

بعد أن نال كلٌّ من المترجم عشيق وخادمه يونس قسطهما من الراحة اجتمعا مرةً ثانية في الغرفة التي لم تسترح النار في موقدها. جلس يونس في مكانه متأهباً للتدوين وقد زال عنه خدر اللحظات اللذيذة التي منحته إياها الخادمة الحلوة زينب ذات الوشاح الأحمر. كان يتحسّس شفتيه يلمس فيهما آثار قبلاتٍ مجنونة حين قال الشيخ:

– سأحكي لك بقية ما جرى لي في ذلك اليوم. تدوّن ثم تنصرف لأمورك، وسنرى إن كنا سندوّن ليلاً أم لا.

– كما ترغب يا مولاي.

– فلتدون إذاً يا ولدي. ليس أمامنا وقتٌ كثير نضيعه.

غابت الراهبة العجوز عن ناظري فيما كانت العربة تلك

تقترب حتى بلغت البوابة الكبيرة فتوقفت قليلاً. رأيت الحوذي والراهب الذي بجانبه يتكلمان مع الحرّاس ثم انطلقت العربة من جديد وسارت بهدوء على الدرب المبلطة بالحجر الأسود حتى صارت بمحاذاتي. رفعت يدي ملوّحاً بها فتوقّفت العربة ونزل منها الراهب الذي بدا في حوالي الأربعين من العمر. صار يتقدم إلي وهو يبتسم والصليب الذهبي الذي على صدره يلمع حتى وصل إليّ وسلّم باحترامٍ بالغ. صافحته بحرارة وخاطبته بالعربية:

- فتيان لغة؟ الحمد لله على سلامتكم.

- نعم. ثلاثة فتيان.

قال ذلك بحسرة لم أفهمها ثم صار ينادي الفتية بأسمائهم وسط دهشتي العظيمة:

- سابا، شمعون، جرجس. انزلوا أيها المباركون.

كان ذلك مدهشاً حقاً. راهب يرافق ثلاثة فتيان أسماؤهم تطابق أسماء رفاقي الذي وصلت معهم قبل نصف قرن إلى تلك البقعة بالذات! ألأنا في حلم أم أن الزمن يتكرّر بتفاصيله المدهشة؟ غزتني رغبةٌ عارمة في معرفة اسم الراهب المرافق فسألت:

- وما اسمك أيها الراهب المبجّل؟

- بولس. أنا بولس أيها المبارك.

أوشكت أن يُغمى علي.

لاحظ الراهب اضطرابي فصار يحدّق بي صامتاً مذهولاً، فيما نزل من العربة فتيانٌ صغار السن يعتمرون قبعات بيض مدوّرة ويتدلّى على صدر كل واحدٍ منهم صليبٌ فضيّ كبير. كادت الرهبة تنطق في وجوههم التي أرهقها السفر الطويل في البحر ولوّحتها الشمس. تذكّرت رحلتنا وأنا لا أزال مذهولاً من الصدفة العجيبة التي رأيتها تتكرّر أمامي بعد خمسين عاماً. كانوا ثلاثة فتيان بنفس أسماء رفاقي الثلاثة الذين لم أعد أعرف عنهم أي شيء مذ غادروا روما إلى أوطانهم.

سألت مازحاً:

- وأين تركتم يوحنا الأنطاكي؟

جحظت عينا الراهب وارتبك الفتية الثلاثة وتجهّمت وجوههم، فعرفت أنني أثرت شجوناً خفية.

سألني الراهب بدهشة:

- وهل تعرف يوحنا الأنطاكي؟

- أنا هو. أنا اسمي يوحنا الأنطاكي يا أخي بولس.

ولمّا رأيت الذهول يمنعه من الكلام قلت:

- سأرافقكم إلى المدرسة المارونية. هيا اصعدوا يا أبنائي يا تراجمة المستقبل.

انطلقت بنا العربة فسرد الراهب في الطريق قصة يوحنا الأنطاكي، الفتى الصغير الذي كان معهم:

- كان الوقت ليلاً والبدر ينير أمواج البحر الهادئة.

كنت أريد النوم بعد نهارٍ مرهق حين سمعت صراخاً علمت أنه قادم من سطح السفينة حيث تركت الفتيان يتسامرون. خرجت فإذا بيوحنا قد صعد إلى أعلى السارية الأمامية ولم يعد يجرؤ على النزول. صار رفاقه يجأرون خوفاً ويطلبون منه أن يهبط، فيما هو مرتبك لا يعلم كيف يتصرف. أفزعني أن أرى يوحنا يرتجف هناك في أعلى السارية الشاهقة مثل عصفور فأمرت جرجس ورفيقيه أن ينادوا البحارة الجنوبيين بينما بقيت أنا أسفل السارية أتمتم آيةً من سفر الحكمة بخوفٍ شديد: "عنايتك أيها الآب هي التي تدبره، لأنك أنت الذي فتحت في البحر طريقاً، وفي الأمواج مسلكاً آمناً، وبَيَّنت أنك قادِرٌ أن تُخَلِّصَ مِنْ كل خطر". وقبل أن يأتي البحارة للنجدة بدقائق قليلة هوى يوحنا إلى الأسفل. ظهر أن الرهبة أذهلته وهو في ذلك العلو تلفحه الريح وتعوي في أذنيه ولا يجد حوله إلا الليل وبحراً شاسعاً مهيباً. شاهدناه وهو يهوي مصطدماً بالحبال الكثيرة حتى سقط أخيراً على مرساةٍ صدئة كانت هناك. مات يوحنا.

بعد أن نطق الراهب جملته المفجعة الأخيرة لم أعد أسمع شيئاً مما تبقّى من حديثه. صرت أسمع فقط صدى سنواتي الضائعة التي عشتها بعيداً عن أبي وأمي ووطني. تخيّلت أنني أنا ذلك الفتى المتهور الذي صعد

السارية الشاهقة قبل أربعة وخمسين عاماً وسقط ميتاً.
ما الفرق بين أن يموت المرء بسقوطه من سارية وأن يموت بسقوطه من بلاده؟ لقد سقطت على مرساة روما وحبائل هذه البلاد الغريبة ولم يعد أهلي يسمعون عني أي شيء ولم أعد أسمع عنهم أي شيء. إنها مِيتةٌ أن تعيش في الغربة كل هذه السنوات الطويلة دون أن تشمّ رائحة وطنك. إنها ميتة حقة.

وصلنا إلى المدرسة المارونية فنزل الفتيان وتقدّمهم الراهب بعد أن ودّعوني وودّعتهم بحزن متمنياً لهم إقامةً طيبة. من هناك عدت إلى البيت مشوّش الفكر مضطرب الحال. قلت لنفسي إن كل ما جرى لي اليوم ليس سوى رمزٍ إلهي وإشارةٍ ربانية. انتابتني في البيت قشعريرة كالتي تنتاب من يقع في حفرةٍ مليئة بالثلج وأنا أستعيد أربعاً وخمسين سنةً من عمري في إيطاليا، تلميذاً في المدرسة المارونية، ثم معلّماً للعربية في معهد الرهبان اليسوعيين، ثم تاجراً أجوب المدن، ثم مترجماً في ما تبقّى من سنوات. عرضتُ على خيالي كل تلك السنوات بحلوها ومرّها، واستعدت ذكرى انكساراتي ونجاحاتي وتركي لديني واعتناقي ديانةً لم تغيّر من جوهر روحي ولم تستطع أن تقضي على حنيني الذي كتمته لسنوات طوال.

تناهشني الندم منذ تلك اللحظة ببراثنه ومزّقني

بأنيابه ثم رماني إلى سلالم الحيرة أصعد فيها وأهبط
حتى اتّخذت قراري الحاسم.

توقف الشيخ عن السرد ثم زفر زفرةً طويلة وقال:

- يبدو، يا يونس، أنني سأكتفي اليوم بهذا القدر من الإملاء عليك. لقد تعبت. سآخذ قيلولتي ثم أذهب إلى البحر قليلاً وأعود في المساء. إن شئت أن ترافقني إلى هناك فلك ذلك.

- كما تشاء.

كان يونس لا يزال ثملاً من قبلات الخادمة زينب ذات الوشاح الأحمر. عرَّشت صورة تلك الفتاة الحلوة على جدران مخيّلته كاللبلاب وتركت شفاهُها في فمه مذاقاً لا يشبه أيَّ مذاقٍ آخر جرّبه في حياته. كانت تلك القبلات أطيب حتى من التمر الديري الذي ارتفعت في بستان أبيه ببغداد نخلتان سامقتان منه. نهض حائراً لا يعرف ماذا يفعل ودار حول نفسه دورتين ثم خرج تاركاً مولاه لساعة راحته. حين خطا أول خطوة إلى باحة الدار أدرك أنه نسي أن يضمّ عدة التدوين لأول مرة مذ بدأ الكتابة قبل ثلاثة عشر يوماً، فعاد ورفع الأقلام والمحبرة والقراطيس ووضعها في مكانها. كان المترجم قد غرق في نومٍ عميق متدثّراً بعباءة الفرو وعلى وجهه آثار تعبٍ ظاهر.

مساءً، حين غابت الشمس وراء الأفق البعيد في البحر وهبّت نسمات عليلة دافئة من جهة الغرب، عاد المترجم عشيقٌ يصحبه يونسُ النسَّاخُ بعد أن قضيا ساعةً من الزمان قريباً من الشاطئ الهادئ قرب شجرة زنزلخت كبيرة يتحدثان عن الزمان وما يفعله بالإنسان وعن آلام الغربة والحنين إلى الأوطان وتفاصيل كثيرة مما لم يشأ أن

يمليه المترجم في سيرته.

خلال العودة ملأت السماءَ طيورٌ كثيرة وحامت بضع حماماتٍ فوق تخوم القرية لتحطّ أخيراً على أسطح المنازل القليلة وتدخلَ أعشاشها الصغيرة.

قال عشيق بلهفة:

- أكاد أخمّن سعادة هذه الطيور حين تصل إلى أعشاشها. سعادة لا تعادلها سعادةٌ أخرى.

لم يعلّق يونس بشيء. بقي ساهماً واجماً حتى وصلا إلى المنزل. كانت الظلمة قد انتهت لتوها من نسج عباءةٍ طُرِّزت حوافُّها بالنجوم ثم ألقتها على كتفي القرية الصغيرة بهدوء.

أعدّت الطاهية عشاءً خفيفاً، وحين آنست من جانب الباب جلبةَ عودة عشيق ويونس أمرت زينبَ أن تأخذ لهما طبق القش وعليه ما تيسّر من خبز وجبن وزيتون وبيض مقلي. نهض يونس لمّا رآى زينب قادمةً وأخذ الطبق من يدها. همست زينب وهي تغمز له:

- لا تنسَ موعد الليلة يا يونس. إياك أن تنام باكراً.

ثم غابت في العتمة.

***

أوشك يونس أن يطير فرحاً حين قال له عشيق:

- استرح الليلة يا بني، فغداً أمامنا نهارٌ طويل من التدوين. سنكمل الكتاب الثاني إن شاء الله قبل أن تغرب شمس الجمعة.

حمل يونس طبق القش وخرج إلى المطبخ خفيفاً كفراشة. لم يكن هناك أحد. وضع الطبق بهدوء ثم خرج متوجّهاً إلى غرفته فأشعل ثلاث شمعات ثخينات ووضعها في أماكن متفرقة من حجرته الصغيرة: واحدة عند وسادته، والثانية على حافة النافذة المطلّة على باحة الدار، والثالثة في كوّةٍ في الجدار الشمالي. مزّق يونس بإيقاده تلك الشمعات سكونَ الليل ثم جلس متكئاً على وسادةٍ محشوةٍ بصوف الغنم يطالع في كتابٍ جلبه معه من بغداد.

مضت ساعةٌ من الزمن هدأت فيها الكائنات جميعاً حتى إن النجوم بدت ناعسةً تبحث عن وسائد تنام عليها. وحده قلب يونس ازدادت خفقاته حتى سمعها الليل الواجم أيضاً. بدأ يونس ينصت إلى كل كل حركة وصوت في الخارج، وحين انتصف الليل سمع دبيبَ أقدامٍ حلوَ الوقع. خفق قلبه أكثر. ولما اقترب الدبيب من باب حجرته ثم سمع طرقاً ناعماً عليه انخلع قلبه فرحاً وفزعاً.

كانت هي.

الخادمة زينب ذات الوشاح الأحمر ذاتها.

كانت ترتدي ثوباً أبيض رقيقاً بدا في ضوء الشموع غلالةً من الضوء يلفّ جسدها البضّ الجميل. فاحت منها رائحةٌ عطر هو مزيجُ القرنفل والياسمين حين اقتربت منه وجلست بقربه.

- اسمي زينب. أنا نصيرية من جبل موسى.

لم يفهم يونس ما تقصده الفتاة من وراء تعريفها بنفسها! هو يعرف اسمها وسمع مولاه يناديها مراراً وكذلك الخادمات الأخريات. كانت في مثل سنه، فتاة ممتلئة الجسم مكتنزة الشفتين مدوّرة الوجه

ذهبية الشعر. فوجئ أنها تشبه الفتاة التي رآها في حلمه البارحة. لم يعقّب على كلامها وتعريفها بنفسها بل أمسك بيدها وفركها في كفه قليلاً وهو يحدّق بصمت في عينيها، ثم أطلق أصابعه تسرح كخرافٍ صغيرة في مروج شعرها الذهبي، ولم يجد نفسه إلا وهو ينحني عليها، يمطرها بقبلات ساخنة كثيرة في فمها ورقبتها وجيدها وصولاً إلى ملتقى النهدين وهو يلهث مأخوذاً باكتشافاته المذهلة. كان ذاك أول مرة يرى فيها فتاةً في فراشه، يسمع لهاثها ويشمّ عطرها ويحدّق في أعماق عينيها ويتجول بشفتيه على جسدها. أشرقت في قلبه أنوار لهفةٍ غامرة وسرت في جسده ارتعاشةُ لذّةٍ لم يعهد مثلها من قبل.

لم يشأ يونس أن يسمع قصتها، لا من أين أتت ولا من هي ولا إلى أين تنوي الذهاب! ابتسم قليلاً حين قالت له إنها شاكسته قبل أيام فقط لتلفت نظره إليها. لكنه لم يردّ بأي كلام. كفاه أنها في فراشه الآن تمنحه أضاميم وردٍ من حقول جسدها وأنه بدأ يحبها منجذباً إليها بقوةٍ عظيمة. بل إن ما شعر به يونس في تلك الليلة كان أكبر من الحب وأوسع. لقد شعر بشيءٍ ما بدأ يشدّه إلى تلك القرية، يخيطه بأرضها كخرقة، يذيبه فيها ويرميه في بحرها.

بقي هو والفتاة النصيرية، كما عرّفت بنفسها الخادمة زينب ذات الوشاح الأحمر، يتقلّبان في الفراش مثل غيمتين، يستكشف أحدهما حقول الآخر، وترعى أناملهما في حدائق الجسدين تقطف الزهور وتجمع قطر الندى حتى بزغت أولى أنوار الفجر. اكتشف يونس في تلك الليلة أن للأجساد سحراً لا يحويه أيُّ كتاب بين دفتيه وعطراً لا تضمّه أية حديقة زهور. اكتشف في زينب النصيرية ما تعجز بلاغته

عن وصفه حين غاب في دهاليز ذلك الجسد الجميل المثير. عرف يونس أن لزينب ذات الوشاح الأحمر حكايةً تريد أن تبوح له بها، لكنه آثر أن يصغي لحكاية الجسد تسطرها أنامل الشهوة وتسردها شهقات اللذة.

براثن الندم

حين أوى عشيق المترجم إلى فراشه أخيراً لينام، تزاحمت الصور في خياله كما تتزاحم الجِداء الصغيرة حين ترد الماء. لقد أثار إملاؤه قصةَ وصول أولئك الفتيان الذين تطابقت أسماؤهم وأسماء رفاقه القدامى وسرد الراهب حكايةَ موت يوحنا الأنطاكي شجوناً كثيرة في نفسه. تقلّب ساعةً لكنه لم يستطع النوم فأشعل سراجاً كان بجانب رأسه وجلس يفكّر.

تذكّر كيف أن الندم بدأ ينهش قلبه. تذكّر كيف أنه صار يذهب كل يوم إلى المدرسة المارونية ويلتقي الفتيان والراهب يريدهم أن يحدّثوه عن الفتى الأنطاكي الذي سقط من أعلى السارية. حدثوه باقتضاب شديد أنهم ألقوا جثمانه في البحر، وأنهم حين وصلوا إلى جزيرة كريت بعثوا مع سفينة متوجهة إلى الإسكندرون رسالةً إلى أهله في أنطاكية يُعلمونهم فيها بخبر وفاة ابنهم. تصوّر لوعة أم الفتى الميت وجزع أبيه. تصوّر أن لذلك الفتى الميت حبيبةً اسمها إستر كانت تنتظره وأنه وعدها بالوفاء. قال في نفسه: "إن كان موت ذاك الفتى رغم إرادته وقضاءً من الله فإنني متُّ بإرادتي. متُّ ولم أمت.

عشت مستمتعاً بالحياة هنا وتركت أهلي يتألمون لفراقي. تركت إستر التي أحببتها لقدرها المجهول. يا إلهي ما الذي فعلته بحقهم؟ تركت ديني وتعلّقت بفتاة آثرتها على أهلي ووطني؟".

– أنا يهوذا الإسخريوطي. بعت بلادي بغربة. أغوتني روما بفتنتها وأضلّني شيطان التجارة فاتّبعته.

ردّد عشيق هذا الكلام بمرارة كبيرة وهو يعود من لقائه الأخير مع الراهب الماروني الجديد. تردّد على المدرسة حتى ضجرت منه الدروب والأزقّة التي يمرّ بها وضجر منه الراهب بولس والفتيان الجدد أيضاً. كان يطرح عليهم أسئلته الكثيرة عن يوحنا الذي قضى نحبه حتى أظهروا له تبرّمهم منه فلم يعد يذهب إليهم. تذكّر الراهبة الجنوية فصار يتردّد عليها في كوخها الصغير خارج أسوار روما قريباً من بوابة أوستينيس. كان يترك روما على سعتها ويتوجه إلى ذلك الكوخ الصغير ينشد الطمأنينة فيه ثم يعود إلى بيته يحتسي الخمرة وحيداً حتى الفجر.

***

صباحاً سمع يونس طرقاً أنيساً على نافذته التي غمرها الضوء. فتح عينيه وفركهما ونظر من خلال الزجاج. كانت شمسٌ ساطعة تغمر الكون ورأى وجه زينب ملتصقاً بالنافذة مبتسماً بغنج.

هبّ مذعوراً من فراشه وأسرع يفتح النافذة. قالت له زينب حين فتح النافذة:

- سيدي عشيق غاضبٌ منك جداً. منذ ساعتين وهو ينتظرك في حجرته. جاء إليك مرتين أراد أن يوقظك فلم تستيقظ.

ظهرت علامات فزع على وجهه فسأل:

- كيف حدث هذا؟ ليس من عادتي أن أتأخر في الاستيقاظ. هذه أول مرة في حياتي أستيقظ فيها عند الضحى.

- لكنها لن تكون الأخيرة أيها الولهان.

قالت زينب وهي تغمز بدلال ثم أردفت في ما يشبه الهمس:

- أنا أمازحك يا حبيبي. مولاك غارقٌ في النوم. أعرف جيداً ما الذي أرّقك يا ديكي النؤوم. لكن ما عساه أرّق صاحبك الشيخ؟

ذكّرته كلمة حبيبي بأمه التي تركها في بغداد، فهو لم يسمع تلك الكلمة إلا من أمه التي كانت تنطقها بحنانٍ جمّ. لكن زينب نطقتها بنكهةٍ أخرى. سمع فيها جرساً جديداً كما لو أنها زهرةٌ جميلة يكتشفها لأول مرة في غابةٍ عذراء أو سوسنةٌ فاجأته في حقلٍ بري ذات ربيع.

ذهبت زينب بعد أن أيقظته فأرسل خلفها سرباً من عصافير اللهفة. مضت وهي تشدّ الوشاح الأحمر وغابت في عتمة المطبخ.

توجّه يونس، بعد أن غسل يديه ووجهه، إلى غرفة مولاه ودخل ليراه جالساً في فراشه يتأمل الموقد الغافي.

- تعال يا يونس. لقد أرقتُ ليلة البارحة فاسترسلتُ في النوم. كم الساعة؟

- العاشرة يا مولاي. إنها العاشرة صباحاً.

- يا للهول! هل تناولتَ الفطور؟

- لا. لا أشعر بالجوع.

- وأنا كذلك. فلتعدّ لنا زينب قهوةً بيديها. سمعت أن قهوتها طيبة، وأنا لم أشربها منذ زمن.

- سأفعل.

همّ يونس بالخروج فرحاً لكن المترجم أوقفه قائلاً:

- وقل للخادمات يساعدنك في وضع الطاولة وكرسيي القشّ خارجاً. سنتناول قهوتنا هناك ونبدأ على بركة الله. سندوّن اليوم في الباحة تحت أشعة شمس الربيع. أرجو أن ننتهي اليوم.

- إن شاء الله.

قال يونس ثم خرج كأنه يطير.

كان ذلك يوماً تفتّحت فيه الأزهار والقلوب. ملأت الطيور التي حطّت على أغصان شجرة الكينا الكبيرة باحةَ الدار بتغريدها العذب وسرى في الأجواء حفيفٌ لطيفٌ لأجنحةٍ صغيرة كانت ترسم أقواساً من الحبور في السماء.

- قهوتين لي ولمولاي الترجمان، وقولي للخادمات يُخرجن الطاولة الخشب وكرسيي القش.

- اجلس في قلبي يا يونس. سأفرش لك هناك بساطاً من حرير.

غازلته زينب وعصرت يده برقة ثم ذهبت توقد النار وتعدّ القهوة حين سمعت جلبة الطاهية قادمةً من غرفة المؤونة.

جاءت خادمتان أخريان فأعلمتهما زينب بطلب الترجمان. أسرعت الخادمتان إلى قبوٍ تحت المطبخ وأخرجتا منه طاولة خشب عتيقة وكرسيين من القش ووضعتا كل ذلك في نور الشمس قريباً من غرفة عشيق.

لم تمضِ لحظات حتى كانت القهوة أيضاً جاهزة: فنجانان من الخزف الأبيض الصيني الفاخر المنقوش بنقوشٍ زرقاء يعلوهما بخارٌ لطيف وتفوح منهما رائحةٌ زكية تشي بأن البنًّ يمنيٌّ وأنه مطحونٌ حديثاً.

حملت زينب الطبق الذي عليه فنجانا القهوة ومشت متمهلةً حتى وضعتهما على الطاولة. نظرت إلى حبيبها بشغف ثم مضت تاركةً ابتسامتها معلّقةً في الهواء بين خيال الحبيب وبخار القهوة.

***

- أتزعجك الشمس؟

- لا يا مولاي. إنها لطيفة.

- انسج إذاً يا يونس ما بقي من بساط الحكاية كما تنسج هذه الشمس بساط النور. دوّن يا ولدي:

أوصلتُ أولئك الفتيان الذين تطابقت أسماؤهم وأسماء رفاقي إلى المدرسة المارونية ذاتها التي درست فيها، وعدت إلى منزلي عند البوابة الكبيرة لأغوص في وحول الحيرة.

لا أدري لماذا قرعتْ روحي فجأةً نواقيسَ الحنين، ولا كيف ارتفع في مآذن قلبي أذانُ الشوق! لم أستطع النوم تلك الليلة فسهرت حتى الصباح أتقلّب في فراشي وأستعرض حياتي مذ وطئت قدماي البرّ الإيطالي وحتى

اللحظة التي رأيت فيها فتيان اللغة أولئك القادمين من جهة الميناء. وحين طلعت الشمس من جهة حمَّامات كَرَكَلاّ خرجتُ إلى المدرسة ألتقي بالفتيان والراهب الجديد أسألهم عن الفتى الميت يوحنا الأنطاكي. كان هذا دأبي لبضعة أيام حتى قال رئيس المدرسة:

- أيها الأخ يوحنا، دع الفتيان وشأنهم. ألا ترى أنك تثقل عليهم حين تسأل عن رفيقهم الذي مات؟ ألا ترى أنك تثير أحزانهم ومواجعهم؟

كان ذلك صحيحاً. رأيت أثر حديثي عليهم. كانوا حزينين لا يريدون الحديث عن رفيقهم الذي مات على مرأى منهم، فاعتذرتُ وانقطعت عن زيارتهم.

صرت بدلَ ذلك أذهب كل صباح إلى ساحة إسبانيا حيث كنت أصعد الدرجات الحجرية الواسعة أمام كنيسة ترينيتا دي مونتي ثم أهبط، أصعد ثم أهبط حتى تكلّ قدماي فأعود إلى منزلي. ثم بعد قليل من الراحة أذهب إلى ضفاف نهر التيبر أحدّق في موجه المتدفق صوب البحر. وذات يوم رآني صبيٌّ خارجٌ من الكنيسة، يبدو أنه راقبني عدة أيام، فسألني: "سنيور، هل أضعت شيئاً هنا؟ أراك تبحث كل يوم". نظرت إليه مبتسماً ثم قلت مازحاً: " نعم. لقد أضعت وطني". "وهل وطنك صغير لتبحث عنه على درجٍ حجري؟" سألني الصبي مستغرباً، فأجبته

بابتسامة ثانية: "وطني بعيدٌ يا فتى، بعيد جداً وأنا أبحث عن بابٍ يوصلني إليه". لم يجب الصبي، زمّ شفتيه وهرول مبتعداً وهو يحرّك يديه حركاتٍ عرفت منها أنه يقصد أنني مجنون.

تركت المشي فوق الدرجات كالمجانين. تركت التجول في ساحة إسبانيا. تركت التنزّه على ضفاف نهر التيبر الصاخب. لم يكن لي أصدقاءٌ حميمون في روما بعد كل تلك السنين! كنت وحيداً بلا صاحب أو صديق. شجرة لا تشبه أية شجرة. كان لدي أصدقاءٌ قليلون وقساوسة أعرفهم، لكنهم كانوا مشغولين بأمورهم ولم أجد فيهم من يصغي إليّ ويقاسمني حيرتي ويرشدني إلى طريقٍ أسلكه وأخرج من المتاهة.

لم أجد من أفشي إليه همومي سوى الراهبة الجنوية. صرت كلّما مالت الشمس عن وسط السماء وراقت الأجواء أتّخذ طريقي إلى كوخها خارج الأسوار وأستمع إلى فيض عباراتها وكلماتها الحكيمة.

استقبلتني الراهبة الجنوية في المرة الأولى بامتعاضٍ ظاهر وقالت لي:

- تبعتني إذاً إلى الكوخ! كنت أتوقّع أن تأتيني. هل أيقنت أخيراً بأنك أنت الذي رسمت مصيرك؟

أجبتها بحزن:.

- وما الذي سيتغيّر إن كنت أنا أو غيري من رسم

مصيري؟ إنني أتعذّب الآن أيتها الراهبة الجليلة، أتعذّب كثيراً.

فقالت بنبرة إشفاق:

– إنك تتعذّب حنيناً إلى تراب وطنك. أنت نايٌ حنَّ إلى موطنه في مزرعة القصب.

– وماذا أفعل؟ هل أبقى هنا وأموت غريباً أم أعود إلى دياري؟ إن من رمى بي هذه الرمية قد مات الآن. لست أنا من اختار هذا الطريق أيتها الراهبة المبجلة.

لم تجب الراهبة العجوز. مدّت يدها إلى كوز ماء بجانب سريرها الذي كانت تجلس عليه وشربت منه قليلاً ثم قالت:

– هل أنت ظامئ؟

أجبتها:

– إلى الماء لا، أما إلى الحقيقة فنعم.

فقالت:

– ستبقى ظامئاً إذاً حتى ترحل عن هذه الدنيا.

تكرّرت زياراتي للراهبة الجنوية. كانت حيرتي تقودني إليها وندمي يرميني على باب كوخها الحقير. كنت أراها أحياناً جالسةً تحت شجرة الزيتون الكبيرة تحدّق في الدروب التي تأتي إلى روما من كل الجهات. كانت عربات كثيرة تقرقع بعجلاتها على تلك الدروب الحجرية المحفوفة بالأشجار، أما في دروب قلبي

فكانت عربة الندم تغرز عجلاتها عميقاً حتى أكاد أسمع صوت قلبي يتمزق.

لم أعد أحتمل البتة ما أعانيه.

وذات يوم اضطربت نفسي أشدّ الاضطراب. حملت نفسي وذهبت إلى الكوخ فلم أجد الراهبة هناك. بحثت في تلك الأنحاء فلم أجدها أيضاً. استندت إلى جذع الزيتونة الهرمة وصرخت فزعاً فجاءني صوتٌ واهن من وراء صخرةٍ بعيدة. ذهبت إليها فإذا بالراهبة العجوز تستظلّ بظلّ الصخرة وتحدّق في البوابة الكبيرة صامتةً حزينة. قلت لها:

- لقد طفح الكيل أيتها الراهبة. أريد أن أعود. لم أعد أحتمل أثقال ملح الغربة على ظهري. لقد تقدّم بي العمر ولا أريد من الله شيئاً سوى أن أُدفن في التراب الذي تلقّاني ساعة ولدت وخطوت عليه أولى خطواتي في هذه الحياة.

أجابتني وهي لا تزال تحدّق في البوابة بحزن:

- أتعرف يا أخي كم من الناس يدخلون روما كل يوم عبر هذه البوابة فقط؟ أتعرف كم يخرج منها أيضاً؟ إنهم بالآلاف. يأتونها زائرين، سائحين، تجاراً، حجاجاً، طلابَ علم وحتى لصوصاً، ويغادرونها كذلك. أتعتقد أن كل واحد من هؤلاء يعاني ما تعانيه أنت؟ كلا. أستطيع أن أخمّن مقدار عذابك، فوجهك

يطفح بالحيرة وينطق بالندم. عليك أن تشكر الله على أنه أخضعك لهذا الامتحان. عليك أن تفهم السرّ وأن تخرج من الامتحان بفهم الحكمة.

زالت ملامح الحزن قليلاً عن وجهها وأخرجت من جيبها حبة زيتون صغيرة. عصرت الحبة بين أصبعَي السبابة والإبهام حتى أخرجت البذرة من جوفها ورفعتها صوبي وسألتني:

- أترى هذه البذرة القاسية؟ أترى صغر حجمها وحقارة شأنها؟ إنك لا ترى المكنون فيها. هل تظن أن ما فيها قابلٌ للظهور إلى العيان إن لم تخضع لتجربة قاسية ورحلة مرّة؟ هل ستصبح هذه البذرة شجرةً عظيمة إن لم تُدفن في باطن الأرض وتعاني من وحشة الوحدة في جوف التراب شهراً بعد شهر وتُسقى بالماء وتتشقّق ليخرج من أحشائها ما يغوص أعمق في التراب فيصبح جذوراً، ثم يلفظُ رحمُ تلك البذرة ما يشبه ريشةً خضراء فتيةً تشقّ ظلمات التراب حتى تصعد في الهواء وتصبح فسيلة زيتونٍ صغيرة. ثم تمضي الأشهر والسنوات والشمس تضرب الفسيلة الفتية والريح تلفحها، تتحمّل برد الشتاء وحرَّ الصيف حتى تتحول إلى شجيرة سرعان ما تكبر بعد أن يتعهدها الزرّاع بالسقاية والرعاية والاهتمام، أو يكلؤها الرب بعنايته فيسقيها من السماء حتى تصبح شجرةً كبيرةً كتلك التي

هناك تلقي بظلالٍ وارفة على الأرض يتفيّأها العابرون وترتاح على أغصانها الطيور ويستفيد الناس من زيتونها وزيتها وحطبها أيضاً. أنت الآن زيتونة وقلبك ممتلئ من زيت الحكمة يا أخي. وما قلقك الذي جئتني تشكو منه إلاّ دليل حكمة عميقة. لذلك أنصحك إن عدت اليوم إلى البيت أن تفكّر. أنصحك أن تتّخذ قراراً ترسم به ملامح ما تبقّى من حياتك وتخفّف عنك هذه الأعباء. لا يليق بك، أنت الذي خضت التجربة وخرجت من أتونها، أن تندب حظك كل يوم وتأتيني إلى هذا الكوخ لأدلّك على الطريق. لن أكون مثل أولئك الذين ادّعوا أن مفاتيح الحقيقة في أيديهم وأنهم وحدهم يعرفون طريق الخلاص. منحتْك التجربة الطويلة حكمةً تتبيّن بها ما هو جيد وما هو غير جيد. منحك الله مفتاحاً لمعرفة الحقيقة. لقد منحك العقل فجدْ طريقك بنفسك.

كنت أصغي إليها بصمت وتمعّن حتى انتهت من كلامها الحكيم، فأجبتها:

– يا أختي الراهبة، لقد اتّكلت على عقلي فأوردني موارد الهلاك. عقلي هو الذي أبقاني هنا أسيرَ حبٍّ فتاةٍ تزوجتُها وأنستني أهلي وبلادي. عقلي هو الذي زيّن لي التجارةَ والبقاءَ هنا منتشياً بخمرة الثروة ففضّلتُها على العلم الذي جئت لأجله إلى هذه البلاد. عقلي هو الذي وهو الذي وهو الذي...

سكتت لبرهة قصيرة أغمضت فيها عينيها ثم فتحتهما ونهضت متوكئةً على عصاها وقالت:

- كثيرٌ من الناس لا يفرّقون بين العقل وهوى النفس. إنك ترى أحدهم يسعى طمعاً وراء المال فيرتكب الموبقات في طريق كسبه ثم يظن أن عقله أورده تلك الموارد. يجهل ذلك الشخص أنه اتّبع هواه وليس عقله. إن العقل ميزانٌ منحه الله للإنسان، آلةٌ يقيس بها الخير والشر، الحق والباطل. إنه سراجٌ أهداه الرب الحكيم لك وما عليك إلاّ أن تشعله لتتبيّن طريقك في الظلام. وإنك، يا أخي، إذا أبقيت سراج العقل منطفئاً قادتك الشهوات في دروبٍ متعرّجةٍ خطيرة.

سكتت الراهبة مرةً أخرى ثم خطت بضع خطوات وهي تقول:

- أمّا كيف تشعل ذلك السراج فذلك تستفيده من الحكماء والأنبياء والقديسين الأخيار. هؤلاء يقولون لك كيف توقد ذلك السراج، هديةَ الرب، ويُعلّمونك أيَّ زيتٍ تستعمل وكيف تضع الفتيلة وفي أية كوة تضع السراج حين تشعله.

ثم مشت إلى كوخها ومشيت بجانبها. قالت لي بنبرة إشفاق ونحن نقترب من الكوخ:

- احسم أمرك يا أخي. التردّد لصٌّ يسرق العمر، وأنت قد سُرِق منك الكثير. عد إلى بيتك وفكّر. زن

الأمور بميزان العقل واتّخذ قرارك. لن أقول لك "عد إلى بلادك". ليقل عقلك ذلك. وإن لم يأمرك عقلك فاعلم أن بقاءك في هذه الديار خيرٌ لك. سر على بركة الله.

توقّف عشيق المترجم عن الإملاء ونظر إلى يونس. كانت حبيبات صغيرة من العرق تزيّن جبينه.

– أتعبت من التدوين يا يونس؟

– كلا يا مولاي. أدوّن بسرور.

– أتزعجك الشمس؟

– ليس بعد. إنها جميلة ولطيفة، ثم إن ظهري إليها.

ابتسم عشيق ثم أمال قبعته قليلاً وأنزل حافتها الأمامية ليحجب نور الشمس عن عينيه. كانت قد أتى بتلك القبّعة من روما ولم يرها يونس عنده من قبل. كانت قبعةً من القش بحوافّ طويلة تلقي ظلالاً على الوجه فتقيه حرّ الشمس ونورها الساطع. تناول الشيخ آخرَ رشفةٍ من القهوة التي كانت قد بردت، وقال مملياً بقية الحكاية:

غابت الراهبة واتّخذتُ طريقي عائداً إلى روما واتجهت إلى بيتي الصغير. كنت في أوج القلق والحيرة. رباه ماذا أفعل؟ أأبقى هنا لأموت غريباً؟ أأعود إلى بلادي وقد خسرت كل أهلي؟ إلى أين أعود؟ إلى من أعود؟ إنني ميت في الحياة، فأجيني بلطفك يا رب!

في تلك الليلة اتّخذت قراري بالعودة. رأيت أن

العودة إلى الوطن، مع كل الخسارات المتوقعة، مع كل الجراح التي يمكن أنِ أصاب بها، أفضل من البقاء هنا. كان الرحيل عن بلادي ملحاً على الجرح ولا بدّ أن تكون العودة بلسماً. تذكّرت كلام حوذينا بوزان الكردي حين أخذني بالعربة يوم سافرت إلى روما: "إن كان وطنك جرحاً فإن الرحيل عنه ملح؛ ملحٌ يزيد الجرح ألماً".

سأعود.

لم أجد نفسي في آخر الليل، بعد أرقٍ شديد وصداع أليم، إلا وأنا أصرخ بتلك الكلمة: سأعود. رددتها مراراً وفتحت نافذتي كأنني أريد أن يسمعني كل العالم، وأن تسمعني روما كلها، نواقيسُ روما، كنائسُها، ساحاتُها الفسيحة، حدائقها، أسوارها، بواباتها، هضابها السبع، صلبانها، مبانيها الفخمة وآثارها العظيمة. سأترك كل ذلك ورائي وأعود. سأعود ولو بقي من العمر يومٌ واحد. سأعود إلى حيث أنبتتني أرضي وسقتني سمائي. سأعووووود.

صرخت جذلاً. صرت كالطفل الذي يتعلّم كلمةً جديدة فيردّدها عشرات المرات. أوشكت أن أخرج في تلك الليلة وأتوجّه إلى الراهبة لأخبرها بقراري.

غلبتُ وحش الندم إذاً وقطعت براثنه. غلبت الحيرة وتوابعها. حسمت أمري.

بعد يومين علمت بموعد انطلاق إحدى سفن جنوة إلى قبرص. ضممت أشيائي الثمينة، كتبي، والمال الذي اقتنيته وأموراً أخرى في حقيبتين كبيرتين. لم أنسَ القطعة الصغيرة المتبقية من مرآة أمي. لففتها بنفس القطيفة السوداء التي لفّت بها أمي مرآتها الجميلة حين أرسلتها معي. لم يكن ثمة من أودّعهم سوى ثلاثة تجار وقسّ وصديقين كنت أسامرهما.

صبيحة اليوم الرابع، وكان يوماً لطيفاً، خرجت مع شبان في العشرين من العمر تقريباً أنهوا دراستهم في المدرسة المارونية. كان يصحبهم القس بولس الذي رأيته قبل أيام يرافق فتيان لغة جدداً. انطلقت العربة بنا وبدأت عجلات اللهفة تقرقع على دروب خيالي. حين تجاوزنا البوابة الكبيرة سمعت قرع نواقيس روما. تخيلتها تودّعني وترجو لي السلامة فدمعت عيناي. كان قرع النواقيس البهيج آخر ما سمعته وأنا أغادر البوابة متجهاً إلى الميناء. وحين نظرت إلى الوراء آخر مرة رأيت صلباناً كبيرة تنتصب فوق بعض الكنائس. بدأت تلك الصلبان تصغر وتصغر حتى اختفت عن ناظري وراء الأسوار والهرم الجميل والبوابة ذات البرجين الشاهقين.

وصلنا بعد دقائق معدودات إلى شجرة الزيتون الهرمة فقلت للحوذي الإيطالي:

- توقّف لحظة أرجوك. سأودّع الراهبة الجنوية وأعود.

قهقه الحوذي وقال:

- تقصد الراهبة المجنونة! يبدو أنها سحرتك أيضاً أيها السنيور.

لم ألتفت إلى كلامه. نزلت ومشيت إلى الكوخ. كانت هناك، جالسة تتأمل سرب حمامٍ يطير فوق نهر التيبر.

- تريد العودة وجئت تخبرني؟

- أجل سأعود. جئت أودّعك.

- امضِ بسلام. بارك الرب خطوك.

لم تزد على ذلك. وجدت نفسي صامتاً كالأخرس. اكتشفت هناك أنه لم يبق لدى الراهبة ما تقوله لي ولم يكن لدي ما أقوله. "حماكِ الله"، قلتُ وكأنه لا بدّ من قول شيء ومشيت.

عندما وصلنا إلى ميناء أوستينيا رأينا سفينةً راسية ترفع راية جنوة البيضاء بالصليب الأحمر؛ الراية نفسها التي جئت في ظلالها إلى روما قبل نصف قرنٍ من الزمان. "جئت في ظلّ صليب وأعود في ظلّ صلِيب"، هكذا فكّرت في نفسي، لكنني لم أشعر بتلك الغصّة التي رافقتني حتى روما على ظهر السفينة وأنا أرى الراية تخفق فوق رؤوسنا قبل خمسين سنة. صعدنا جميعاً

مع أحمالنا واتّخذنا أماكننا على سطح السفينة. هبّت أنسامٌ رخية. سرعان ما انتفخت الأشرعة فشرع النوتية يفكّون الأمراس الغليظة وهم يتصايحون بمرحٍ كبير ويهزجون.

انطلقت السفينة. خفق قلبي بقوة. شعرت كأن خيطاً كان يربطني بتلك الأرض قد انقطع. التفتّتُ إلى البرّ الإيطالي لآخر مرة. لم يكن هناك من يودّعني. لم أجد منديلاً يلوّح لي ولا يداً ترتفع في الهواء ثم تهبط لتمسح دموع صاحبها. اختلط لدي الحزن بالبهجة، الندم بالحيرة والألم بالفرح.

زفرت بعمق وانحدرت على وجهي دمعتان كبيرتان.

مع إملاء الجملة الأخيرة تهدّج صوت عشيق وخنقته العبرة فصمت. بقي صامتاً يراقبه يونس دون أن يرى عينيه. كانت حافة القبعة الإيطالية تحجب نصف وجهه. مرت برهة قصيرة رفع بعدها عشيق وجهه فبدت في عينيه آثار دمعٍ أبى أن ينحدر.

– يكفي هذا الصباحَ يا يونس. لقد حميتْ الشمس. سنرجئ ما تبقّى من الحكاية إلى الليل.

– ألا تفطر يا مولاي.

– بلى يا يونس. سأذهب إلى حجرتي وأنتظرك هناك.

رفع يونس الأوراقَ التي سطّرها ذلك الصباح في نور الشمس. ضمّ الأقلام والمحبرة ووضعها في ظرف أخذ ما ضمَّه إلى الحجرة

التي سبقه إليها مولاه عشيق، ثم خرج ليرفع الطاولة فوجد زينب هناك. نظر إليها يونس فرأى وجهها مثل أقحوانة. لأول مرة كان يونس يراها بذلك الوضوح في ضوء شمس لطيفة. ابتسمت وهي تعقد وشاحها الأحمر حول عنقها ثم قالت غامزةً:

- انتظرني الليلة أيضاً يا يونس.

ردّ يونس وهو يمسك بيدها التي حملت أحد الكرسيين:

- سأنتظرك كل ليلة.

- لا تكن طمّاعاً يا عصفور، وإلا فسيطبق الفخ على عظامك النحيلة.

- أي فخ يا صيّادة؟

- سترى حين تنهشك أسنانُه.

الفصل السابع

نحيب المئذنة

مساءً، حين بدأت العتمة تروي لقرية ميدان حكايتها المألوفة في الخارج، اتّخذ يونس من جديد مكانه المعتاد للتدوين. كل شيء كان جاهزاً في حجرة عشيق المترجم ليشهد الخاتمة. شموعٌ عديدة أضاءت المكان، والنافذة مفتوحةٌ لأول مرة منذ أربع عشرة ليلة كاملة. هزّت نسماتُ المساء القادمة من جهة البحر الستارةَ الزرقاء الرقيقة وأزاحتها فبدت نجومٌ كثيرة تتوهّج كأنها تتزاحم لتصغي إلى النهاية. أما شظية المرآة الصغيرة، التي شهدت قلق البداية، فكانت مركونةً إلى كتاب **الخلاصة في اللاهوت** لتوما الإكويني تعكس نور شمعة مضاءة بجانبها تستعدّ هي أيضاً لتشهد نهاية الرحلة؛ رحلتها هي أيضاً. فاحت رائحة الحبر الطازج الذي أعدّه يونس في النهار حين وضع القلم في المحبرة ثم نفضه مرتين كعادته، وعبقت الأجواء بالسحر.

نظر المترجم عشيق في المرآة قليلاً، ثم أزاحها وقال:

- سننهي السيرة هذه الليلة يا يونس. سننتهي من كتاب **رحلة الفتيان إلى بلاد الصلبان**. دوّن ما أمليه عليك:

بعد أربعين يوماً وليلة قضيناها في البحر اقتربت سفينتنا من خليج الإسكندرون. رافقتنا في شمالنا جبال طوروس الشاهقة حتى دخلنا الخليج وبدت جبال النور بخضرتها الفردوسية. صعدت إلى ظهر السفينة وتوجهت إلى مقدمتها متشبثاً بالدرابزين أنظر إلى البرّ الذي لاح من بعيد حضناً حنوناً يستقبلني.

قبل أن أصل إلى الميناء بربع ساعة مزّقتُ ورقةً تثبت أن اسمي يوحنا الأنطاكي. كانت ورقةً زوّرها الراهب الماروني المرحوم بولس عبد النور لتسهيل مروري إلى بلاد الفرنجة. مزقتها ورميتها في البحر. كانت وثيقتي التي تثبت أن اسمي محمد عشيق الدين بن رشدي الأنطاكي لا تزال معي. أخرجتها لأظهرها للقائمين على أمر الميناء حين نزولنا إلى البر.

ألقيت يوحنا الأنطاكي في البحر، رميته فوق ظهر موجة رأيتها تلثم جانب السفينة الراسية. هناك، حيث مات يوحنا الأنطاكي، ولد محمد عشيق من جديد. بل ولد قلبٌ جديد في صدري يتّسع للمذبح والمحراب. ولدتُ من جديد أنا الذي تمازجت في جسده روحا محمد عشيق ويوحنا الأنطاكي.

كان جميع الركاب فوق ظهر السفينة يرقبون

اليابسة. انتابني لحظةَ رؤيتي للساحل والسفن الراسية في الميناء شعورٌ غريب هو مزيجٌ من اللهفة والرهبة، الحيرة والشوق، الندم والبهجة. وحين اقتربت السفينة أكثر ولمحت مئذنة مسجد الميناء يعلوها هلالٌ نحيل مفتوحٌ صوب الجنوب دمعت عيناي. بكيت مثل طفل. كنت أُبعث حياً وأولد من جديد. امتلأت رئتاي بالهواء العليل فشهقتُ مثل طفلٍ لحظة الولادة. لا أدري ما الذي حدث لي! رغبت في أن أعتذر لذلك الهلال الصغير المفتوح صوب الجنوب. رغبت في أن أقول للمئذنة: "ها أنا قد عدت لأتفيأ ظلالك". رغبت في أن أصرخ بكل ما في حنجرتي من صوت. لكنني خرست. كنت مذهولاً وأنا أرى الهلال يكبر رويداً رويداً والمئذنة التي تحمله ترتفع شاهقةً في سماءٍ صافية زينتها شمس رائعة.

وفجأةً تناهى إلى سمعي، وأنا لا أزال على متن السفينة، صوت الأذان ينساب من جهة المئذنة الشامخة شجياً نقياً:

الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله.

كم كان يشبه نحيب الأرواح ذلك الأذان! كم كان يشبه نشيج روحي في تلك اللحظة! انسكبت كلمات الأذان ذاك على روحي مثل شلالٍ من الضوء. لم أجد نفسي إلا وأنا أردّد تلك الكلمات خاشعاً بصوتٍ يشبه

نحيب المئذنة تلك. وحين انتهيت وانتهى المؤذن طفرت الدموع من عيني وتوجهتُ إلى الأسفل مستعداً لمغادرة السفينة.

تذكّرت لحظتها الهلالَ نفسه الذي رأيته يصغر حين ابتعدت سفينتنا عن الميناء صيف عام ١٧٠٨ يوم سافرنا إلى روما. ودّعني الهلال هنا في الإسكندرون قبل نصف قرن ليستقبلني الصليب هناكَ في روما. ثم ودَّعني الصليب في روما وها هو نفس الهلال يستقبلني هنا في الإسكندرون! وما بينهما، ما بين الوداع والاستقبال، ما بين الهلال والصليب، ما بين الأذان الرخيم وقرع النواقيس الجليل، قضيت عمري أمشي على دروب الحيرة، قضيته في التيه، قضيته في الانتظار المرّ للحقيقة المستحيلة. وفي ذلك التيه صار قلبي يتّسع للهلال والصليب معاً؛ صار يُسمع فيه بنفس الدرجة من الرهبة والجلال قرعُ النواقيس وصدى التكبيرات. لم يعد قلبي يعرف الكراهية.

تلك كانت غنيمتي الكبرى. ولقد دفعت عمري ثمناً لذلك.

لم يكن ثمة أحد في استقبالي. لم أجد يداً تلوّح لي بمنديل قبل أن أطأ اليابسة ولا ذراعين تنتظرانني. تماماً كما لم يكن ثمة من يودّعني في روما. شاهدت كثيرين من الركاب يركضون ليعانقوا مستقبليهم. شاهدت

نشيج بكاءٍ يتعالى هنا وأنغام ضحكة تتردّد هناك، عتاباً هنا وزفرةً هناك، تراتيل شوقٍ وبهجةٍ هنا تختلط بصدى قبلاتٍ هناك. وحدي كنت في ذلك الميناء مثل نخلة منسيةٍ في صحراء. وحدي كنت مثل سفينةٍ ضلّت طريقها في البحر بعد عاصفة هوجاء. كانوا غريبين عني، وكنت غريباً بينهم. غريباً كنت في بلادي.

في الميناء بدت لي الأشياء أيضاً غريبة. الأزقة والناس والهواء وصخب السوق ورائحة البحر وظلال الأشجار. ترى، أأصبحت أنا غريباً في وطني أم أن الأشياء صارت غريبة؟ لم أعد أعرف الدروب، لم أعد أعرف التلال والدروب والأنهار والأشجار والقرى والهضاب والوديان وكل الأماكن الأخرى التي كنت أمرّ بها. كانت كلها غريبةً عني وكنت غريباً عنها.

تلك كانت خسارتي الكبرى: أن أنأى عن بلادي وأنا فتىً، ثم تغويني الغربة بفتنتها فأنسى كل شيء، ثم أعود إلى بلادي شيخاً هرماً غريباً لا تعرفني ولا أعرفها. لقد سافرت إلى روما مكرهاً بقلبٍ أزهر فيه الحب واخضرَّ عوده، وعدت إلى بلادي بمحض إرادتي بعد نصف قرن بروحٍ مكسورةٍ وقلبٍ علاه الصدأ.

استأجرت عربةً من العربات الكثيرة التي تدافعت في الميناء وقلت للحوذي بعد أن دفعت له فلوريناً ذهبياً:

- إلى قرية ميدان، على البحر، بعد أنطاكية.

- أعرفها يا خواجه.

ردّ الحوذي، الذي عرفت خلال الطريق أن اسمه عثمان وأنه يتكلم لغات كثيرة كما ادّعى، وهو يضع فلورينه الذهبي في محفظته غير مصدق. ظنّ في البداية من هيئتي أنني إفرنجي فبالغ في احترامي. حمل عثمان حقيبتَي الثقيلتين ووضعهما في مؤخر العربة ثم جلس بجانبي وساط الحصان لتنطلق بنا العربة تطوي المسافات بسرعة.

بعد عدة ساعات وصلنا إلى مشارف أنطاكية. أصبحت العربة تسير ببطء على ضفة العاصي حتى إذا ما اقتربنا من وسط المدينة سمعنا قرعَ ناقوسٍ جميلاً بهيجاً فطربت له. كانت قد مضت عليَّ أربعون يوماً دون أن أسمع ذلك الرنين العذب الذي ألفته روحي قبل أذنَيّ. تذكّرت حينها كنيسة العزيز باول التي زرتها بصحبة أمي قبل أنا أغادر إلى روما. سألت الحوذي عثمان إن كان يعرف تلك الكنيسة فأجاب ضاحكاً:

- ها هي يا سيدي تنادي النصارى.

كنت قد نسيت موقعها فطلبت منه أن يأخذني إلى هناك. أسفل أيقونة كبيرةٍ للعذراء مريم، عند المذبح، أشعلت شمعةً ثخينة لروح أمي ثم غادرت الكنيسة حزيناً. حتى الكنيسة بدت غريبةً لي. لم أشعر أبداً أنني أمرّ بمدينةٍ عرفتها من قبل. لم أشعر أنني أمرّ بمدينةٍ

تذوقت طعامها وشربت ماءها وتنسّمت هواءها وتفيّأت ظلال أشجارها وصلّيت في مساجدها وزرت أضرحة قديسيها.

لم أكن أعلم أنني أمرّ بمدينةٍ دُفن فيها والداي!

لكنني شعرت أنها تعاتبني.

في وسط المدينة نزلنا لننال قسطاً من الراحة عند جسرٍ على ضفة نهر العاصي. اشتريت قليلاً من الطعام، وملأ الحوذي عثمان قربتين من مياه النهر، ثم واصلنا السير.

كان الوقت خريفاً والقرية تستحمّ مثل حوريةٍ في بحرٍ من الألوان الساحرة. كنت صامتاً طوال الطَريق أتمعّن في الأرض والسماء وما بينهما، أصغي بين الفينة والأخرى إلى الحوذي عثمان يغني بالتركية، أسأله عن قريةٍ نمرّ بها أو تلةٍ تكسوها الأشجار أو ساقيةٍ تجري هناك ثم ألوذ بالصمت. واصلنا السير على ذلك المنوال على دروبٍ تنحدر إلى الجنوب بموازاة جبالٍ إلى يميننا وغاباتٍ إلى يسارنا وقرىً متناثرةٍ هنا وهناك حتى بلغنا مشارف القرية.

مشاعرُ غريبةٌ أخرى انتابتني وأنا أقترب من القرية. أفكارٌ شتى دارت في رأسي كقفيرٍ من النحل حتى ظننت أن الحوذي عثمان يسمع طنين تلك الأفكار.

أمرت الحوذي أن يتوقف:

- قف يا بني، أريد أن أنزل.

ظنّ الحوذي عثمان أنني أريد قضاء حاجة فحاد بالعربة إلى جانب الطريق ثم أوقفها، لكنني نزلت ومشيت متوجهاً إلى قريتي.

- إلى أين يا عم؟

- سأذهب إلى قريتي مشياً.

لحقني بعربته ورجاني:

- اصعد يا عم. ستتعب من المشي.

لم أستمع إليه. طلبت منه فقط أن يتبعني ويسير الهوينى.

لن أتعب من المشي ربع ساعة صوب قريةٍ لم تتعب من انتظاري نصف قرنٍ من الزمان. لقد انتظرتْ هذه القريةُ وقعَ أقدامي على دروبها المتعرجة الكثيرة وبقيتْ هنا في مكانها تستند برأسها المثقل بألم الانتظار على هضبة مكلّلة بالصنوبر ترنو إلى البحر شهراً وراء شهر، عاماً إثر عام تترقّب عودة ابنها الضال من تيه الغربة دون أن تيأس. وها هي الآن تفتح لي ذراعيها، تضحك لي. ها إنني أرى دموع الفرح تترقرق في عينيها. لقد غفرت لي هذه القرية الرؤوم ولن يكون من الوفاء أن أدخلها راكباً مثل دخول الفاتحين. سأمشي على أقدامي إلى هذا الحضن الذي حرمت نفسي منه وآثرتُ عليه حضناً غريباً بعيداً آلاف الفراسخ. سأمشي صوب هذه القرية

حتى يتصبّب العرق مني وألهث مثل جرو. أنا الشقي الذي خنت خبزها وملحها. أنا النجم الضال الذي تاه في سماوات بعيدة.

- اصعد يا عم، إنني أشفق عليك من وعورة الطريق.

لم أصغِ إليه مرةً أخرى.

من أين سيعرف الحوذي المسكين عثمان، الذي كان يغنّي مبتهجاً طوال الرحلة، أن ما يسميه وعورة الطريق هو الذي تبحث عنه روحي الآن؟ من أين سيعرف هذا الفتى الإسكندروني التركي معنى أن أتنفس بعد نصف قرن رائحة أرضٍ ولدت فيها؟ من أين سيعرف معنى أن ألتقي بترابٍ خطوت عليه أولى خطواتي قبل سبعين عاماً؟ من أين سيعرف أن صبايَ شهدَ في هذه القرية ميلادَ حبٍّ لم تكتمل فصوله؟ كيف سيعرف أن صفاراً أرمنياً كان يأتي إلى هذه القرية بعربةٍ يجرّها بغلٌ هزيلٌ يثير من الأشواق بقدر ما يثير من غبار؟ من أين سيعرف أنني كنت أصغي بقلبي لوقع حوافر ذلك البغل حين يمرّ بالقرب من بيتنا؟ من أين سيعرف أن تلك العربة كانت تحمل إلى قريتي كل يوم جمعة إستر اليهودية ابنة الصفار الأرمني التي عشقتُها في صباي ورحلتُ إلى روما مكرهاً فحملتُ عشقها بين جوانحي كشمعة؛ كشمعةٍ أطفأتْها عواصفُ النسيان اللعينة؟!

واصلت سيري والدموع تكاد تمنع عني رؤية القرية. كنت أقترب وأنا أكاد أسمع أنفاسها. شعرت بذراعيها المفتوحتين تدعوانني إلى حضنها. شعرت بيدها اللطيفة تمسح على رأسي، تداعب شعري الأشيب، تواسيني وتعلن الغفران.

وصلت القرية.

أسرعت في الخطو قليلاً وأسرع قلبي في خفقانه. شعرت أنني أحجّ إلى مكانٍ مقدّس. كدت أخلع نعليَّ.

هأنذا أخيراً في قريتي.

عدت من روما العظيمة إلى هذه القرية الصغيرة المنسية المرمية على ساحل هذا البحر مثل لؤلؤةٍ ضائعة.

- أين بيتك يا عم؟

أين بيتي؟ صعقني سؤال الحوذي الإسكندروني. "لن أضلّ الطريق إلى بيتي"، قلت لنفسي.

- هناك، عند تلك التلة يا عثمان.

قلت له وأنا أمشي. غذذتُ السير. لمحت بيتي؛ بيتي الذي ولدت فيه. أخيراً وصلت إليه. لمست جدرانه. يا الله كم كان يتيماً وحزيناً!

لم أستطع أن أكبت شوقي. لم أجد نفسي إلا وأنا أركض مثل طفلٍ ملتاع رأى أمه بعد غياب. صرت ألثم الجدران. قبّلت النوافذ. قبّلت الباب. طرقته ودموعي

تهطل. طرقته برفق وأصغيت لعلّي أسمع صوت أمي، عساني أسمع صوت أبي وأخواتي. لم يردّ أحدٌ منهم. رفعت اليد النحاسية ولثمتها. تخيّلت إستر وهي تطرق باب بيتنا بخفر. تسأل إن كانت لدينا أوانٍ نريد صقلها. بلى يا إستر بلى. قلبي. قلبي الذي علاه صدأ الغربة. قلبي المثقل بأوجاع الحنين. قلبي المهدود من اللوعة آنيةٌ بحاجة إلى يديك تزيلين بهما كلَّ صدأ.

مرّت لحظات رهيبة. ارتبك الحوذي عثمان، وضع حقائبي عند الباب ومضى.

لم يكن هناك أحد. بقيت عند الباب أطرقه ولا يجيبني سوى الصمت. وسرعان ما اجتمع حولي رجال القرية وأطفالها. سلّمتُ عليهم وعرّفتهم بنفسي:

– أنا محمد عشيق بن رشدي صاحب هذه الدار. كنت في روما. ذهبت إليها قبل خمسين سنة، واليوم عدت.

ثم أردفت سائلاً بمرارة:

– أين أصحاب الدار؟

تهدّج صوت المترجم الشيخ عشيق حتى كاد يجهش بالبكاء.

دُهِشَ يونس فصمت. وضع القلم وشعر بألم كبيرٍ في صدره. كادت عيناه تدمعان لأول مرة خلال تدوينه تلك السيرةَ الحزينة.

بقي الاثنان صامتين هكذا برهةً من الوقت، ثم نهض يونس أخيراً وأغلق النافذة التي هبّت منها نسمات باردة أزاحت الستارة الزرقاء

لتظهر وراءها نجومٌ قليلة ترتعش. شغل نفسه قليلاً بترتيب الأوراق ثم سأل:

- مولاي، هل انتهينا من تدوين السيرة؟ أأرفع القراطيس والأقلام؟

- أجل يا يونس، لقد انتهينا. لم يعد لدي ما أمليه عليك. انتهى كل شيء.

ردّ المترجم بحزن ثم أردف مستدركاً:

- بقيت الخاتمة. لا بدّ منها يا ولدي.

- أدوّنها بسرور يا مولاي.

ردّ يونس بنبرة حزنٍ شديد.

أملى عشيق المترجم الجمل الأخيرة وحلقه يغصّ بالحروف:

هذا ما عاشه في بلاد الطليان ورواه محمد عشيق بن رشدي الأنطاكي المعروف بعشيق المترجم غفر الله له ولوالديه، وسمّاه **رحلة الفتيان إلى بلاد الصلبان**. أملاه في كتابين على الفتى النبيه يونس بن إيبش البغدادي مسكناً الأرناؤوطي ملةً في قرية ميدان من سنجق أنطاكية بولاية حلب لسبع ليالٍ مضين من شهر شعبان المعظم الموافق سلخَ شهر شباط من عام ألفٍ وسبعمئة واثنتين وستين.

والحمد لله على حسن الختام، إليه الرجعى وإليه المآب.

عجوز لدى الباب

صباحاً استيقظ يونس متخففاً من أعباء التدوين الذي أرهقه لأربعة عشر يوماً وليلةً متواصلة. لكن قلبه كان مثقلاً بالألم الذي سببته الفصول الأخيرة التي دوّنها يوم أمس. خرج حزيناً من حجرته. رأى المترجمَ جالساً يستمتع بشمس الصباح على كرسي القش عند شجرة الكينا يشرب قهوته.

- تعال اشرب القهوة.

ناداه عشيق فمضى يونس صوبه متثاقلاً، لكنه حين لمح زينب من بعيد تحمل قدوراً إلى المطبخ قال بلهفة:

- سأذهب لأجلب فنجاناً.

- ها هو الفنجان يا ولدي هيأته لك.

خجل يونس. شدّه قلبه صوب زينب لكن نداء الشيخ أوقفه فمشى إليه وجلس على كرسيٍّ بجانبه. بدا الشيخ سعيداً وهو يرتشف من قهوته جرعات صغيرة ويتناول تيناً مجففاً، يتأمل باحة داره التي تسبح في غلالةٍ من الضوء.

هبّت ريحٌ خفيفة فتمايلت الأغصان وسرى بينها حفيفٌ أنيس كأن

سرباً من الكراكي يطير قريباً من رأسيهما.

- لقد انتهينا يا بني من تدوين الكتاب الثاني والأخير من **رحلة الفتيان إلى بلاد الصلبان**. ولقد كان لك فضلٌ كبير في تحريره وتحبيره. سأجزل لك العطاء. ولكن قل لي الآن ماذا قررت، هل ستبقى معي أم ستغادر إلى بلادك كما كنت تنوي قبل أسبوعين؟

أطرق يونس برأسه مفكّراً. تناهبته الحيرة وتمنّى لو أنه لم يسمع ذلك السؤال الصاعق. أيبقى في هذه القرية من أجل زينب التي علق بها بكل جوارحه، أم يرحل إلى بلاده لكيلا يكرّر ما فعله عشيق بنفسه وبأهله؟ هو ليس مثل عشيق، ولن تكون حاله كحال المترجم القادم من إيطاليا. وسوس شيطان الحب له: "لقد تزوجت أمك رجلاً غريباً وأبوك مات. أنت لا تشبه عشيقاً، ولن تكون مثله، لن تعتنق ديانةً أخرى. أنت تريد أن تذهب إلى أهلٍ ربما تنكّروا لك. إبقَ هنا. زينب هي وطنك. وإن استبدّ بك الشوقُ إلى بلادك يوماً، خذها معك".

- هيه يا يونس، لم تجبني. أتريد البقاء؟

- سأجيبك يا مولاي. انتظرني لحظة.

نهض يونس عن الكرسي وأسرع إلى حجرته. بقي برهةً قصيرة ثم عاد وفي يده صرّة بيضاء رطبة من الكتان.

- ما هذا؟

سأل المترجم بفضول. لم يجب يونس. مشى خطوات قليلة ثم توقف. انحنى على الأرض وحفر فيها بسكينٍ صغيرة كانت معه. كان التراب رخواً واستطاع خلال لحظاتٍ أن يحفر بعمق شبر حفرتين متجاورتين. كان عشيق يراقبه باندهاش وفضول.

- مولاي، هاتان نواتا تمر.

- نواتا تمر؟

- نعم. جلبتهما معي من بغداد. كنت أنوي أن آخذهما مع نوى أخرى في صرة الكتان هذه إلى إقليم السنجق في البوشناق وأزرعها هناك.

- والآن؟

- سأزرع النوى في هذه الدار إن أذن مولاي. ستصبح بعد عدة سنوات نخلات شامخة وتثمر.

- وستبقى هنا لتسقيها وتهتم بها؟

سأل الشيخ ضاحكاً.

خجل يونس. أدرك عشيق ذلك فقال بنبرةٍ جادة:

- يسرّني كثيراً أن تبقى معي. ستكون مثل ولدي، وستنسخ الكتب وتعينني في ما تبقّى من العمر. سأعلمك الإيطالية لتترجم الكتب التي جلبتها معي من روما. ازرع النواتين يا يونس، ازرعهما يا ولدي، فإن لم آكل تمرهما ستأكله أنت وبنوك.

طرب يونس لما سمعه. لم يقل شيئاً. انحنى على الحفرة الأولى فوضع فيها أولى النواتين ثم عرَّج على الثانية فوضع فيها النواة الأخرى ثم قال:

- سأسقي النواتين الآن بكثيرٍ من الماء. بعد أيام ستخرج من تحت التراب فسيلتان خضراوان.

- سأنادي زينب لتأتيك بإبريق ماء تسقي به نواتيك.

خفق قلب يونس.

- زينب. يا زينب. هاتي إبريق ماء ليونس.

نادى الشيخ فأسرعت زينب بإبريقٍ نحاسيٍّ كبير وجاءت لتقف بجانب الفتى.

- صبّي الماء هنا.

قال يونس بلهجة رجاء رقيقة.

صبّت زينب وهي تهمس:

- يا شقي! انتظرتك الليلة الماضية كثيراً. ماذا كنت تفعل عند الشيخ؟ كانت النافذة مضاءة حتى آخر الليل! نمتُ لمّا يئست.

- كنت أدوّن حكايته. انتهينا منها.

- ومتى ستدون حكايتي؟

- وهل لكِ أيضاً حكاية؟

- كل إنسان له حكاية. هيه! لماذا يداك متّسختان؟

- أثر ترابٍ وحبر. ويداك ألا ترين سواد ما تحت أظافرك؟

- إنه حبر القدور التي نطبخ فيها لك ولمولاك الشيخ طعامكما.

قطع حديث يونس وزينب طرقٌ على الباب. شنَّف المترجم الذي كان يراقب المشهد أذنيه جيداً. بدا أنه يستمع لطرقٍ مألوف فأصغى إليه بكل جوارحه. كاد وجهه ينطق باللهفة حين قال:

- افتح الباب يا يونس.

نفض يونس يديه مما علق بهما من ترابٍ رطب ثم توجّه صوب الباب.

- عجوز يا مولاي. عجوز لدى الباب.

قال يونس.

- يا أهل الدار، هل لديكم أوانٍ صدئة؟

نادت المرأة العجوز بصوتٍ مرتفع وهي تدخل.

هبّ عشيق واقفاً. سمَّره الذهول في مكانه كأنما رأى ميتاً يخرج من القبر.

- إستر؟

- نعم أنا إستر يا عشيق. عرفتني؟

عرفها بقلبه. كل تلك السنين لم تستطع أن تمحو إستر من ذاكرته. حين عاد من روما كان قد نسي كل شيء. لم يتعرّف على المساجد والكنائس والأزقة والحارات في الإسكندرون وأنطاكية، ولا في قريته. دلّه أحد الأطفال إلى المقبرة حيث دُفن والداه في أنطاكية حينما زارهما قبل أسبوعين. كان قد نسي تماماً أين تقع المقبرة التي زارها مرات عديدة مع أمه. لم يعرف الدروب التي سار فيها، ولا التلال التي مرّ بجانبها ولا حتى نهر العاصي الذي عبره قادماً من الميناء متجهاً إلى قريته. كان كل شيء غريباً. تبدّل كل شيء، وجوه الناس، الأرض، السماء، الأشجار وملامح القرية.

وحدهما عينا إستر ظلتا كما هما: سنونوتان تطيران في سماء قلبه.

وحين طرقت الباب ذلك الصباح أصغى عشيق بكل جوارحه إلى طرقها اللطيف. لم يتغير أبداً. طرقٌ أنيسٌ يلطِّفه خجلُ العذارى. ذكَّره ذلك الطرق الخجول بطرقها على الباب حين كانت تأتي لتأخذ الأواني إلى أبيها الصفّار الأرمني إسحاق. دقَّ قلبه بعنف. هبّ واقفاً يحدّق في الباب. كانت إستر لا تزال في ذلك القلب لم تغادره. كانت

مختفيةً فيه. أزاحتها السنوات الكثيرة إلى ركنٍ قصيٍّ منه لكنها لم تخرج أبداً.

خرجت الخادمات كلهن يراقبن المشهد: المترجم الشيخ عشيق واقف مذهول عيناه تدمعان والعجوز إستر تثرثر ضاحكةً وتقول:

– لماذا عدت شيخاً يا عشيق؟

أما يونس، الفتى النسَّاخ الذي كان قبل قليل يزرع نواتي تمر في باحة الدار، فلم يكن أقل ذهولاً من عشيق حين رأى أمام عينيه تلك المرأة التي كتب قبل أيام فصولاً من قصة الحب القديمة بينها وبين عشيق قبل عشرات السنوات. لم يستوعب الموقف في البداية لكنه فهم أنها هي: فتاة القصة التي دوّنها في الأسبوع الماضي. حدّق في العجوز إستر وصار يقارنها بالفتاة الصغيرة التي دأبت على الركض في الأزقة تنقل الأواني من هذا البيت وذاك إلى أبيها الصفّار، الفتاة التي علق بها الفتى عشيق وصار ينتظر بلهفة عظيمة وصول العربة كل جمعة إلى القرية ليحظى منها بابتسامة أو لمسة يد أو همسة حب. صار يونس يتنقل ببصره بين مولاه الصامت الذاهل وبين إستر. تذكّر ما دوّنه خلال الأيام الماضية، تذكّر الفتاة الصغيرة إستر التي تجوب القرى مع أبيها الصفّار الأرمني إسحاق. حزن حين رأى غدر الزمان الذي يحوّل فتاةً صغيرةً حلوةً ممشوقة القوام إلى عجوزٍ مخدَّدة الوجه محدودبة الظهر.

– هاتوا كرسياً تجلس عليه خالتكم إستر.

نادى المترجم الشيخ فردّت إستر ضاحكةً:

– وهل تظن أن الخالة إستر إفرنجية مثل صويحباتك هناك حيث

شيّبتك الغربة؟ سأجلس على الأرض هنا، تحت نور هذه الشمس الحنون. إيييه كم كان ذلك زمناً جميلاً!

خلعت حذاءها، أزاحت بضعة أحجار صغيرة وجلست على التراب.

أسرعت زينب إليها ببساطٍ صغير:

– الأرض ندية يا خالة. سيتبلل ثوبك. اجلسي على هذا البساط.

– أرضٌ ندية خيرٌ من قلبٍ جاف. هيه، أليس كذلك يا عشيق؟

كان عشيق لا يزال مذهولاً فردّ بحزن:

– أجل يا إستر، أجل. ما أجمل أن تكون القلوب ندية. قولي لي ماذا فعلت كل هذه السنوات؟

***

قضيت عمري أنتظر عودتك عاماً بعد عام يا عشيق. رحلتَ ولم تخبرني. لم تقل لي إنك ستسافر بعيداً. جئت في الجمعة الأولى بعد رحيلك. لم تفتح لي الباب كعادتك. فتحت لي ابنة خالتك الخياطة سلمى. هل تتذكرها؟ كانت قد جاءت مع أمها من قرية أرسوز. كانوا يريدون تزويجك بها بعد أن تعود. ماتت سلمى منذ عامين. رحمها الله، لقد تعذبت كثيراً. عاشت عشرة أعوام طريحة الفراش مشلولةً خرساء، كما روت لي إحدى قريباتكم.

في الجمعة الثانية أيضاً لم تفتح لي الباب. في الثالثة كذلك. اشتقت إليك وعذّبني غيابك. لم أتمالك نفسي. سألت أمك: "أين

عشيق يا خالة؟" ردّت بحزن: "في روما؟". لم أكن أعرف أين تقع روما. ظننت أنها إحدى القرى. قلت في نفسي إنني سأراه حين يعود من قرية روما. مضى شهران ولم تعد. ثلاثة شهور. عام ولم تعد. كنت صغيرة وكان اشتياقي إليك أكبر مني يا عشيق. لم تبقَ آنية في القرى المحيطة لم أقم بجليها من الصدأ. لكني لم أقدر أن أزيل ذكراك من قلبي يا عشيق.

لم تعد. عرفت فيما بعد أن روما بعيدةٌ جداً. بيننا وبينها بحارٌ وجزرٌ وسفنٌ تغرق ومسافرون لا يعودون. قال لي الحوذي بوزان إنك ستعود بعد ثلاثة أعوام أو أربعة. مضت تلك الأعوام ولم تعد. هل تتذكّر الحوذي الكردي بوزان؟ المسكين، انقلبت به العربة قبل أعوام طويلة. وقع في أحد الوديان فمات.

ذات يوم جئنا، أنا وأبي، إلى القرية. ذهبت إلى بيتكم وأنا أحمل قدراً ومقلاة بيّضناهما لأمك، وقبل أن أرفع اليد النحاسية الصغيرة وأطرق الباب رأيت بوزان يقف بجانبي. كان رجلاً حنوناً يا عشيق. لا بدّ أنك تتذكره.

حكى لي بوزان عن قصته الأليمة. كان يعرف بقصتنا أيضاً. لقد فهم منك أنك كنت تحبني. قال لي إنه سيعود إلى بلاده بحثاً عن الفتاة البدوية التي عشقها. قال بحزنٍ كبير إنه لا يستطيع نسيان ميّاسة القيسية. لم أرَه حزيناً كما كان في ذلك اليوم. ثم تحدث عنك. قال إنه يحتفظ لك ببقية قصة لم يكملها حين أخذك إلى الميناء لمّا سافرت إلى روما. أكّد لي أنك ستعود. قال لي وهو يواسيني: "عشيق سيعود يا إستر. سيعود لأكمل له الحكاية. سيعود لتكتمل حكايته هو أيضاً.

وسيعود لأنه يحبك فلا تيأسي. انتظريه عاماً عامين عشرة أعوام. هذا هو الحب. هذا هو الحب الذي نفهمه نحن الفقراء أكثر من أولئك الذين يُنسيهم ترفُ الحياة في القصور كلَّ شيء. سيعود يا إستر. انتظريه فإن متعة الحب وألمه في الانتظار". ثم رأيت دمعتين صغيرتين في عينيه. لم تنحدرا. بقيتا هكذا معلقتين بأهدابه. قال لي: "لا شيء يعوّض عن الحب"، ومضى إلى عربته.

لكنك لم تعد يا عشيق. مرّت الشهور ثقيلةً كأنها مربوطةٌ بأثقالٍ من الحديد. كنت شاهدةً على جزع أمك وقلق أبيك. ماذا فعلت يا عشيق؟ بعتنا كلنا بروما؟ هيه؟ ما هي روما وأي سحرٍ فيها ألصقك بها؟ قل لي، هل فيها نساء جميلات؟ هل فيها بحر وسفن وأشجار جميلة؟ هل فيها نهر حنون مثل العاصي؟ وهل فيها صفّارون يصقلون الأواني مثلنا؟ كيف يتكلّم أهلها؟ لا بد أنها مدينة ساحرة وسكانها سحرة. لا بد أنهم سحروك. وإلا كيف تبقى كل هذه السنين ولا نسمع عنك شيئاً؟ كيف تغادر بلادك يافعاً نضراً مثل شتلة ريحان ولا تعود إليها إلا مثل كرمةٍ هرمة!

مات أبي الصفار يا عشيق. مات وأنا في العشرين. مات إسحاق الأرمني الطيب الحنون وترك لي مهنةً أعيش منها. ترك لي عربته وعدّته القليلة وقال لي قبل أن يموت: "إستر، هذه الدنيا برية مليئة بالذئاب يا ابنتي، ولكي تستطيعي العيش فيها لا بدّ لك من أنياب. المال يا ابنتي؛ المال أنياب المرء".

بعد عامين تركت التجوّل في القرى. تركت أنطاكية. بعت البيت الذي ورثته من أبي إسحاق وسكنت في الإسكندرون. اشتريت بيتاً

صغيراً قريباً من الميناء لأتنسّم أخبارك. ظننت أنني هكذا سأكون قريبةً منك. أقرب على الأقل. صرت أتذكرك كلما هبّت الريح الغربية. كنت كلما وصلت سفينةٌ غريبة أذهب إلى الميناء. أراقب العائدين. أتشمّم رائحتك وأبحث عنك بينهم. تكرّرت زياراتي إلى الميناء. زرتها بعدد السفن القادمة من بلاد الفرنجة. ذات مرة لمحتُ شاباً نزل من سفينة إيطالية ترفع علماً أبيض يتوسّطه صليب أحمر. كان يشبهك. هكذا تخيلته. حين اقترب مني ناديت بصوتٍ مرتفع: "عشييييق" وكدت أركض إليه لأعانقه. لم يردّ علي. ولما مرّ بجانبي حدقت فيه. لم تكن أنت. كان ينظر إلي باشمئزاز كمن ينظر إلى مجنونة. ألم يكن ما أفعله جنوناً يا عشيق؟

أواه لو تعلم كم مرةً حلمت بك تعود. حلمت بك مرات كثيرة تفتح لي باب الدار وتضع آنيةً في يدي وتقول لي: "انظري في عينَي يا إستر". كنت أنظر في عينيك فأرى سفناً تمخر عباب البحر وعرباتٍ كثيرةً محمّلةً بالخمور تمشي على الدروب المتعرّجة ثم تغيب.

لم أقطع زياراتي عن الميناء. هناك، يا عشيق، تحرّش بي الصعاليك والشطّار والحوذية والحمالون. توهّموا أنني بنت هوى. راودني عن نفسي كثيرون غيرهم أيضاً. اضطررت أن أتنكّر في زيّ الرجال كلما ذهبت إلى الميناء. لففتُ شعري بعمامةٍ مزركشة وارتديت ثياباً يرتديها الشباب ولبست عباءة أبي المرحوم. هكذا سلمت من شرّ المتحرشين بي، لكني لم أسلم من ألم انتظارك وأمله. لا أدري لَمَ كان قلبي يكذب علي. قال لي الحوذي الكردي إنك ستعود وأنا صدقته. وقال لي إنه سيعود إلى حبيبته مياسة القيسية فصدقته أيضاً،

لكنه مات ولم أعرف هل كان سيعود حقاً أم لا! كان الأمل يدفعني إلى أن أتّخذ طريق الميناء كلما رست فيه سفينةٌ غريبة. لقد ذهبت مرات كثيرة لكنني يئست. وبعد بضعة أعوام التقيت صدفةً براهبٍ يُدعى بولس عبد النور. كان قد جاوز السبعين عاماً. تعرفه أليس كذلك؟ قال لي إنه صديق أبيك المرحوم رشدي أفندي وأنه هو الذي رافقكم في رحلتكم إلى تلك البلاد. عرفت أنه يريد التوجّه إلى روما. حمَّلته رسالةً مني إليك؛ رسالة صغيرة أمليتها عليه قبل أن يسافر بيوم. لا يمكن لأحد أن يتخيّل سعادتي في الأشهر التالية. كنت أتخيلك تقرأ كلماتي البسيطة؛ تبتسم وتلمس رسالتي بحنان؛ تطويها، تشمّها وتضعها في جيبك وتحت وسادتك حين تخلد إلى النوم في أمسيات وحدتك. لم تصلك الرسالة يا عشيق. غرقت السفينة التي استقلّها الراهب بولس عند شواطئ اليونان. غرقت رسالتي وأشواقي إليك. غرقت كلماتي، وغرق الراهب.

وحدها ذكراك لم تغرق. عشت على أمل أن تعود ذات يوم وألقاك من جديد. كنت أنتظر أن يعود أحد من روما برسالةٍ منك على الأقل. آمنت بك. صدّقتك وصدّقت ذلك النور الذي كان يشعّ من عينيك كلما التقت نظراتنا. عرفت يا عشيق أنك تحبني بصدق. ومن يحب بصدق لا يمكنه أن يخون. لا أبداً لن يخون. ربما تزوجت وعاشرت نساء كثيرات، ربما أحببت أيضاً، لكنني كنت على يقين بأنك لن تنساني. أو هكذا كنت أعزّي نفسي. كنت أقول في سرّي: "على الأقل سيحمل عشيق ذكراي معه في تلك البلاد البعيدة". هل كنت كذلك يا عشيق؟ هل تذكرتني هناك أم أن فاتنات روما قد سحرنك

وأعمين قلبك؟ كيف استطعت أن تتحمّل الغربة كل هذه السنين؟ كان أبي يقول: "إن الروح وعاءُ نحاسٍ يصدأ في رطوبة الغربة". هل صدئت روحك يا عشيق وجئت لتجلوها بنار وطنك؟ هل تزوجت هناك وأنجبت أطفالاً؟

أما أنا فلم أشأ أن أتزوج. كنت شجرةً مقطوعة من غابة مجهولة. عشت يتيمةً وازددت يتماً برحيلك ثم اكتمل يتمي بموت أبي الصفار إسحاق. لم أتزوج يا عشيق. ومن ذا الذي سيقبل بامرأةٍ فقيرة لا يعرف أحدٌ عنها شيئاً سوى أنها كانت طفلة يهودية تبنّاها صفارٌ أرمني؟!

***

توقفت إستر كأنما تعبت من سرد حكايتها. بقيت العيون معلّقةً إلى فمها العجوز الذي تساقطت أسنان عديدة فيه. تنهّدت وزفرت عدة مرات ثم أردفت قائلةً:

– قبل ثلاثة أيام فقط سمعت بعودتك يا عشيق. كنت قبل ذلك في عنتاب. بقيت فيها شهرين. لقد ظهر لي أهلٌ هناك. تصوّر! بعد أن بلغت من العمر ما بلغت سمعت أن لي أهلاً هناك. أية دنيا هذه؟ ذهبت إلى عنتاب. التقيت أهلي. أي أهل؟ هيه. حين عرفوا أنني لا أملك شيئاً كادوا يطردونني. عدت خائبةً مكسورة القلب. التقيت الحوذي عثمان في السوق؛ عثمان التركي الذي رافقك من الإسكندرون إلى قرية ميدان. هذا حوذي مشهور في الميناء كله يصطاد بذلاقة لسانه

الركابَ الأثرياء. حكى لي عن سخائك وأنك نفحته قطعةً ذهبية. حكى لي كل شيء يا عشيق. حكى لي أيضاً أنك نزلت من العربة لمّا رأيت قرية ميدان من بعيد وجئتها ماشياً. لم أصدّق قط ما تسمعه أذناي، فحلف لي أنه أوصلك إلى باب بيتك وأنك قلت لمن اجتمع حولك من أهل القرية إن اسمك محمد عشيق الدين بن رشدي، وأنك لم تجد أحداً في الدار. بكيتُ والله لما سمعت ذلك. عرفت أنك اشتقت إلى بلادك؛ إلى قريتك وأهلك. وربما اشتقت إليّ أيضاً، من يدري؟

بقي المترجم عشيق صامتاً طوال الوقت الذي سردت فيه إستر العجوز حكايتها. أذهلته إستر بتلك الحكاية وهي عجوز ثرثارة، كما أذهلته بحبها وهي صبية خجول. ها هي إستر بعد أعوام كثيرة جاءت لتصقل آنية قلبه بنار الذكرى. ها هي إستر تروي له كنهرٍ صاخب ما عانته من فراقه. ها هي تُشعره أنه خان العهد وتركها تتقلّب على جمر الانتظار تمشي حافيةً على شوك الأمل. لم يتفوّه عشيق بكلمة واحدة. كان يصغي إلى حديثها بعينين مغرورقتين بالحزن. يزفر أحياناً ويهزّ رأسه أحياناً أخرى. يحدّق في عينيها السوداوين الممتلئتين بألف حكاية وحكاية.

كان يونس لا يزال مذهولاً وهو يستمع إلى حكاية إستر. تمنّى في تلك اللحظة لو أنه يعانق زينب ويمضي بها إلى أي مكان ليعيش معها دون أن يعكّر صفو حياتهما أحد. خاف على حبيبته زينب من مصيرٍ مشابه لمصير العجوز إستر إن هو هجرها فأقسم في قلبه أن يبقى معها إلى آخر عمره. قال لنفسه: "سأبقى إلى أن تشمخ النخلتان.

سأبقى إلى أن تصبحا أكبر من شجرة الكينا هذه التي نجلس حولها. لن أكون مثل مولاي عشيق ولن أترك هذه الفتاة التي تيّمتني حباً تعبث بها الأقدار. لن أظلمها وأدعها تتعذّب كما تعذبت هذه المرأة المسكينة. سأكون وفياً لتلك اللحظات الجميلة التي قضيناها سوية في تلك الليلة الحلوة".

أدرك يونس أن لا شيء يمكن أن يعوّض إستر العجوز عمّا لحق بها من ألم، فنظر بحبٍّ كبير إلى زينب. التقت نظراتهما. كانت عينا زينب مغرورقتين بالدمع. رأى انحدار دمعتين صافيتين على وجنتيها. تألّم كثيراً. أراد أن يقول لها: "لا تخافي، سأبقى وفياً معك"، لكنه قال في قرارة نفسه: "أن أقول ذلك سهل جداً. المهم أن أقرن قولي بالفعل. لا. لن أهجر زينب وسأبقى هنا. سأبقى معها. وحتى لو رحلت فسآخذها معي. لا يهمّني دينها ومذهبها ولا من أي قومٍ ونِحلةٍ هي. حبها مذهبي، وعيناها ديني، وحضنها وطني".

كانت زينب والخادمات الثلاث الأخريات يصغين إلى العجوز إستر وهي تروي حكاية انتظارها الطويل. كنّ صامتات أيضاً يحدّقن بذهول وحزن إلى هذه المرأة النحيلة ذات الثوب البنفسجي والشعر الأشيب والحذاءين العتيقين ويستمعن إلى القصة الأليمة باندهاشٍ عظيم.

كانت زينب أكثرهن اندهاشاً وصمتاً. صارت ترفع عينيها خلال حديث إستر تنظر إلى وجه يونس وعينيه. استغربت كل ذلك الشبه بينها وبين هذه العجوز المسكينة. فهي خادمة يتيمة الأبوين، أرسلها أهلها من قرية أرسوز لخدمة الشيخ عشيق مع خادمات أخريات بعد عودته من روما. خافت من مصيرٍ مشابهٍ لما لقيته إستر. تمنّت

لو تنهض فتذهب لمعانقة الفتى أمام الجميع، تمسك بيده وتأخذه إلى مكانٍ بعيد يعيشان معاً إلى الأبد. قالت في نفسها إن يونس لن يخونني. تأكدت أنه سيبقى هناك. "من يزرع نخلتين سينتظر ثمرهما" أسرّت لنفسها ثم نظرت بغبطة إلى تلك البقعة التي سقت فيها لتوّها نواتَي تمر زرعهما حبيبها يونس.

مرّت لحظة قصيرة أطبق فيها الصمت على الجميع. بدا كأن الدنيا كلها صامتة تترقّب ما سيدور في تلك الجلسة. فجأةً سقطت ثمرة كينا صغيرة على طرف ثوب العجوز إستر فأزاحتها وقالت بحزن:

- أتعرف يا عشيق أنك جئتَ متأخراً؟ لقد فات أوان كل شيء.

نعم. فات أوان كل شيء.

- إلا أوان الحكايات.

قال عشيق بأسى تخالطه نبرة مواساة واضحة.

تنهّدت إستر قليلاً ثم قالت موافقة:

- صدقت. إلا أوان الحكايات.

ثم صمتت ثانيةً. مرّت برهة قصيرة قبل أن تقول بنبرةٍ أقرب إلى البهجة من الحزن:

- حسناً يا عشيق. لقد اختصرتُ لك حكايتي كلها ولو شئتُ لقضيت أياماً أحكي ما عانيته وكيف عشت وماذا جرى لي بالتفصيل. لقد أجبتك على سؤالك يا عشيق، فهل تقول لي الآن ما هي حكايتك؟

من أيلول ٢٠١٤ إلى نيسان ٢٠١٥

ألمانيا

يغادر 'عشيق' أنطاكية إلى روما لتعلم اللغات وأصول الترجمة. يقع هناك في حب فتاة مسيحية، ويتزوجها، ويبدّل دينه، ويصبح تاجر خمور...

بعد أن يغدو شيخاً هرماً، يقرّر العودة إلى بلاده والبحث عن إستر، الفتاة اليهودية التي كانت حب طفولته، ولكن... بعد فوات الأوان.

جان دوست كاتب وروائي سوري مقيم في ألمانيا. حاز جائزة القصة القصيرة في سوريا عام 1993، وجائزة الشعر الكردي في ألمانيا عام 2012.

